روبِرْت ڤالْزَر

ياكوب فون غونْتِن

ترجمة: د. نبيل الحفار

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

ياكوب فون غونْتِن

رواية

روبِرْت ڤالْزَر

ترجمها عن الألمانية

د. نبيل الحفار

الكاتب: **روبِرْت ڤالْزَر**

عنوان الكتاب: **ياكوب فون غونْتِن**

ترجمة: **د. نبيل الحفار**

X

العنوان باللغة الأصلية: **Jakob von Gunten**

الكاتب: **Robert Walser**

X

تصمم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

X

ر.د.م.ك: 978-9921-723-65-6

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2020 - 5000 نسخة

X

ياكوب فون غونْتنِ

إن ما يتعلمه المرء هنا قليل جدًا، ثمّة نقص في المعلمين، ونحن فتيان (معهد بِنْيامِنْتا) لن نحقق شيئًا، أي أننا جميعنا لاحقًا في الحياة العملية لن نكون سوى أشخاص ضئيلي القيمة وفي مراتب ثانوية جدًا. الدرس الذي نتلقاه يتركز على نحو رئيسي في تطبيعنا على الصبر والطاعة، وهما صفتان لا تَعِدان إلا بالقليل من النجاح أو بلا شيء منه أبدًا. تعِدان بنجاحات داخلية، نعم. ولكن هذه، ما فائدتها؟ هل تُقدم للمرء مُكتسبات داخلية تؤكل؟ أنا أرغب في أن أكون غنيًا، أن أتنقل بالعربات وأن أبذر النقود. لقد تحدثت في هذا مع كراوس، زميلي في المعهد، إلا أنه هز كتفيه بازدراء وحسب، ولم يتعطّف عليّ ولو بكلمة واحدة. كراوس لديه مبادئ، يركب على السرج بصورة آمِنة، يركب على الرضا والقناعة، وهو بالتالي كديشٌ لا يرغب في ركوبه مَن يريد الجري بحصان. ومنذ وجودي هنا في معهد بنيامنتا، أفلحت في جعل نفسي لغزًا تجاه نفسي. فقد أصِبتُ أنا أيضًا بعدوى حالة من الرضا عجيبة وغير مسبوقة. بتُّ مطيعًا نوعًا ما، ليس بجودة كراوس، الذي يفهم بمُعلميةٍ الاندفاعَ بهمة عالية لتنفيذ الأوامر. ثمة نقطة نتشابه فيها نحن التلاميذ جميعنا: كراوس، شاخت، شيلينسكي، فوكس، بيتر الطويل، أنا والبقية، وهي الفقر المدقع والتبعية. إننا على درجة من الضآلة، تهبط بنا إلى مستوى عدم الجدارة بأي احترام. ومَن كان منا يحصل على مارك واحد كمصروف جيب، كان يُعتبر أميراً مُفضّلاً. ومَن كان مثلي يدخن، كان يثير القلق بسبب التبذير. إننا نرتدي زيًا موحدًا. وارتداء هذا الزي الموحد كان يُذِلنا ويرفعنا في الوقت نفسه. إننا نبدو به كأناس غير أحرار، وربما كان في ذلك مهانة، لكننا كنا نبدو به أنيقين، وهذا ينأى بنا عن مهانة أولئك الناس، الذين يتجولون في ثيابهم الشخصية الخاصة ولكنها ممزقة ووسخة. بالنسبة لي أنا مثلًا، أعتبر لبس الزي الموحد مريحًا جدًا، لأني لم أكن أعرف ما يُفترض بي لولاه أن ألبس. ولكن حتى على هذا الصعيد، مازلت أعتبر نفسي حتى الآن لغزًا. لربما يكمن في ذاتي شخص سافل حقير. وربما كنت أملك دمًا أرستقراطيًا. لست أدري. ولكن ثمة ما أنا على بينةٍ منه تمامًا: لاحقًا في الحياة سأكون صفراً مكعبًا جذاباً.

سأكون مضطرًا وأنا متقدم في السن إلى أن أخدم أجلافًا سيئي التربية وواثقين من أنفسهم، أو أن أتسول، أو أن أهلك.

نحن الأحد عشر متدربًا أو تلميذًا ليس لدينا ما نفعله إلا القليل جدًا، إنهم لا يكلفوننا بأية واجبات تقريبًا. نتعلم عن ظهر قلب التعليمات السائدة هنا. أو نقرأ في كتاب «إلامَ يهدف معهد بنيامنتا للصبيان؟» كراوس يتعلم إضافة إلى ذلك اللغة الفرنسية، يتعلمها ذاتيًا لوحده، ففي برنامج حصصنا لا يوجد لغات أجنبية أو أي شيء من هذا القبيل. هنا يوجد درس واحد فقط، يتكرر على نحو مستمر: «كيف على الفتيان أن يسلكوا؟» وحول هذا السؤال إذا توخينا الدقة يدور الدرس كله. إننا لا نتلقى أي معلومات أو خبرات، فهناك نقص في المعلمين، كما سبق أن ذكرت، أي أن السادة المربين والمعلمين نائمون، أو ميتون، أو هم على حافة قبورهم، أو متحجرون، ومهما كان حالهم فإننا لا نستفيد منهم شيئًا إطلاقًا. وبدلًا من المعلمين الذين، لأسباب مُستغربة، يستلقون هناك ويغفون أشبه بالموتى، تُدرِّسنا وتهيمن علينا سيدة شابة، هي أخت السيد ناظر المعهد، الآنسة ليزا بنيامنتا. تأتي إلى غرفة الصف حاملة بيدها عصا صغيرة بيضاء اللون، وحال ظهورها ننهض كلنا واقفين. وبعد أن تجلس في مكانها، يجوز لنا أيضًا الجلوس في مقاعدنا. تقرع بعصاها على حافة الطاولة ثلاث مرات متتابعة بطريقة آمرة ثم تبدأ الحصة. ويا لها من حصة! إلا أني سأكذب إنْ قلت إني أجدها حصة عجيبة. لا، أنا أجد ما تعلمنا إياه الآنسة بنيامنتا جديرًا بالاحترام. إنه قليل، ولكن لربما يكمن سرٌ ما وراء كل هذا الهراء والسخافات. مضحك؟ نحن فتيان معهد بنيامنتا لا يميل مزاجنا إلى الضحك أبدًا. وجوهنا وتصرفاتنا جادة جدًا. حتى شيلينسكي، الذي ما يزال طفلًا على كل الصعد، نادرًا ما يضحك. كراوس لا يضحك أبدًا، أو إذا أخذه الحال فضحكة قصيرة جدًا، ثم يستبد به الغضب لأنه قد سمح لنفسه بأن يُستثار إلى حد مخالفة التعليمات. نحن التلاميذ بصورة عامة لا نستسيغ الضحك، بمعنى أننا بالكاد نستطيع الضحك، إذ ينقصنا الابتهاج والارتخاء الضروريان له. هل أجانِب الصواب؟ يعلم الله، أن كل إقامتي هنا تبدو لي أحيانًا مثل حلم غامض.

أصغرنا وأقصرنا نحن التلاميذ هو هاينريش. وتجاه هذا الإنسان الغض يكون المرء لطيفًا لاإراديًا ودون التفكير في الأمر. يقف هاينريش أمام واجهات المحلات ساكنًا ومستغرقًا داخليًا في منظر البضاعة والأكلات الطيبة. ثم يدخل عادة ويشتري سكاكر ببضعة قروش، فهو لايزال طفلًا صغيراً، لكنه يتكلم ويتصرف مثل إنسان بالغ حسن التربية. شعره مُسرح ومفروق دائمًا بعناية، الأمر الذي لابد أن يستدعي إعجابي الشديد أنا تحديدًا، ولاسيما أني في هذه النقطة المهمة بالغ الاستهتار. وصوته رفيع جدًا مثل زقزقة عصفور صغير. وإذا خرج المرء ليتمشى معه أو وقف ليتحدث معه، يجد نفسه مضطراً لاإراديًا لأن يحيط كتفيه بذراعه. وعلى الرغم من ضآلته يتخذ وضعية عقيد. ليس لهاينريش شخصية، لأنه لا يعرف بعد ما معنى شخصية. ومن المؤكد أنه لم يفكر بالحياة بعد، وما الداعي لذلك؟ إنه مؤدب جدًا، مستعد لتقديم المساعدة ومهذب، ولكن دون وعي. نعم، إنه مثل عصفور. اللطف يشع منه كله. عصفور يمد يده لمصافحة آخر، إذا مد يده، فهكذا يمشي العصفور وهكذا يقف. كل ما يتعلق بهاينريش بريء، مسالم ومُيسَّر. يقول إنه يريد أن يصير وصيفًا. وهو يقول ذلك دون أي تعطش سوقي، وفي حقيقة الأمر تُعد مهنة الوصيف الأنسب والأصح بالنسبة إليه. فلطافة السلوك والإحساس تسعى إلى مكان ما، وإذا بها تجد الأنسب. بأي تجارب سيمر؟ هل ستتجاسر أي تجارب وخبرات على الاقتراب من هذا الغلام؟ ألن تُخجله خيبات الأمل الفظة، ألن تقلقه وهو البالغ اللطف؟ إلا أني ألاحظ، بالمناسبة، أنه بارد نوعًا ما، يخلو من الجموح والتحدي. ولربما لن يلحظ أبدًا الكثير مما قد يحبطه، ولن يشعر بالكثير مما قد يسلبه خلو باله. من يدري ما إن كنتُ محقًا. لكنني على كل حال أرغب جدًا في تأمل مثل هذه الملاحظات. فهاينريش حتى حد معين لا يستوعب ما يواجهه. وهذا من حظه، ولابد للمرء من أن يفرح له بهذا. فلو كان أميراً، لكنتُ أول من يثني ركبته في حضرته ولبايعته. ولكن للأسف.

كم تصرفت بغباء عندما وصلت إلى هنا. فقد أبديت سخطي في المقام الأول على رثاثة الدرَج. حسنًا، إنه مجرد درج مدخلٍ عادي في بناء خلفيٍ في مدينة كبيرة. ثم ضغطتُ الجرس، وفتح لي الباب كائن يشبه القرد. كان كراوس. لكنني

حينذاك كنت أعتبره ببساطة قردًا، في حين أني اليوم أعزه جدًا، لمجرد جوهره الشخصي الذي يميزه. فسألته عمّا إذا كان السيد بنيامنتا موجودًا. فقال كراوس: «طبعًا يا سيدي»، وانحنى لي انحناءة عميقة وجدتها سخيفة. سببت لي هذه الانحناءة رعبًا حقيقيًا، إذ تبادر إلى ذهني فورًا، أن ثمة ما هو فاسد هنا. ومنذ تلك اللحظة اعتبرتُ (معهد بنيامنتا) خديعة. دخلت إلى غرفة الناظر. وكم يغلبني الضحك، كلما تذكرت المشهد التالي: سألني السيد بنيامنتا عمّا أريد. فشرحت له بارتباك، أني أرغب في أن أكون تلميذًا له. فصمت وتابع قراءة الجرائد. غرفة المكتب، السيد الناظر، القرد السابق، الباب، أسلوب الصمت وقراءة الجرائد، كل شيء، كل شيء بدا لي مريبًا للغاية، وواعدًا بالخراب. وفجأة سُئلت عن اسمي وأصلي. عند ذلك اعتبرت نفسي قد ضعت، وانتابني إحساس بأني قد وقعت وما مِن مخرَج. أجبت متلعثمًا، وتجاسرت على التأكيد بأني من عائلة ذات وضع جيد جدًا. وكان من بين ما قلت إن أبي نائب في برلمان المحافظة، وأني قد هربت من وجهه خشية أن أختنق من تميز شخصيته. صمت الناظر برهة أخرى، وتصاعد خوفي من أن أكون قد خُدِعت إلى أعلى درجة. حتى أني فكرت بأن يتم اغتيالي سرًا بعملية خنق بطيء. وعند ذلك سألني الناظر بصوت آمرٍ عمّا إن كنت أحمل معي نقودًا، فأومأت إيجابًا. «أعطني إياها. بسرعة!» أمرني، والغريب في الأمر هو أني قد أطعته فورًا، رغم أني كنت أرتعد بؤسًا. لم يعد لدي شك بأني وقعت في يدَي لص ودجال، ورغم ذلك وبكل طاعة وضعت مصاريف الدراسة على المكتب. كم تبدو سخيفة لي الآن أحاسيسي تلك. أخذ الرجل النقود وعاود الصمت. فجمعت شجاعة الأبطال لأطلب بارتباك إيصالًا بالمبلغ، لكني تلقيت الجواب التالي: «الأشقياء من أمثالك لا يحصلون على إيصالات». كنت على وشك أن يغمى علي، فرن الناظر الجرس، وفورًا اندفع القرد الأحمق كراوس داخلًا. القرد الأحمق؟ لا، أبدًا. كراوس إنسان عزيز، عزيز جدًا. لكن فهمي حينذاك لم يستوعب ذلك بصورة أفضل. «هذا هو ياكوب، التلميذ الجديد. خذه إلى غرفة الدروس». – ما كاد ينطق الناظر كلماته حتى أمسكني كراوس وجرّني إلى تحت أنظار المعلمة. كم يصبح الإنسان سخيفًا عندما يركبه الخوف. ما من سلوك أسوأ من ذاك الصادر عن الريبة وعدم معرفة

الآخر. وهكذا صرت تلميذًا.

زميلي شاخْت كائن غريب عجيب. يحلم بأن يصير موسيقيًا، ويقول لي إنه بواسطة قدرته على التخيل، يعزف على الكمان بطريقة رائعة، وعندما أنظرُ إلى يديه أصدقه. إنه يحب الضحك جدًا، لكنه يغرق بعد ذلك فجأة في كآبة جامحة، تناسب بشكل لا يُصدَّق وجهه ووضعية جسمه. لشاخت وجه ناصع البياض ويدان طويلتان ونحيفتان تعبران عن معاناة روحية لا اسم لها. ونظراً لضآلة بنيته الجسدية فإنه يتململ بسهولة، ويصعب عليه الوقوف أو الجلوس دون حراك. إنه مثل فتاة هشة وعنيدة، وبما أنه يميل إلى البرطمة كثيراً فهذا يجعله أقرب ما يكون إلى أنثى فتية مُدلّعة. ونحن، أنا وهو، كثيراً ما نستلقي معًا في حجرة نومي على السرير، بثيابنا ودون خلع أحذيتنا، وندخن السجائر، وهذا مخالف للتعليمات. لكن شاخت يحب القيام بما يخالف الأنظمة، وأنا بصراحة لست أقل منه في ذلك، للأسف. فنحكي لبعضنا قصصًا طويلة أثناء استلقائنا، قصصًا من الحياة، أي من تجاربنا، ولكن غالباً من خيالنا، نقطف تفاصيلها من الهواء، ثم نتراءى من حولنا صعوداً ونزولًا على الجدران، ممتزجة بأنغام خافتة. فتتمدد وتتسع الحجرة الضيقة المعتمة، وتظهر شوارع وصالات ومدن وقصور، أناس غرباء ومناظر ريفية، ثم ترعد وتلثغ، تتكلم وتبكي إلخ. من الجميل أن يتبادل المرء مع شاخت أحاديث موشّاة بالأحلام. يبدو أنه يفهم كل ما يقال له، كما أنه بين الحين والآخر يقول شيئًا مهمًا. وهو إضافة إلى ذلك يكثر من الشكوى، وهذا هو ما أحبه في أحاديثنا، أنا أحب الإصغاء إلى الشكاوى. ففي تلك اللحظات يستطيع المرء أن ينظر إلى المتحدث ويشفق عليه داخليًا بعمق. وثمة في شاخت ما يوقظ هذه الشفقة، حتى دون أن يقول ما يثير الحزن. عندما يقيم في نفس إنسان ما نوع من ضجرٍ مرهف، بمعنى التوق إلى ما هو جميل وسامٍ، فقد وجد ضالته في شاخت. فشاخت يمتلك روحًا، ومن يدري، لربما كان من طبيعة فنية. أسَّر لي بأنه مريض، وبما أن الأمر يتعلق بمعاناةٍ لا تُشرِّف تمامًا، فقد رجاني بإلحاح أن أكتم الأمر، وقد أعطيته طبعًا كلمة شرف، كي أطمئنه. ثم رجوته أن يريني موضع المرض، فإذا به يغضب قليلًا ويستدير إلى الجدار، وقال لي: «أنت قليل الحياء». وكثيراً ما نستلقي هكذا دون أي كلام. وذات مرة تجرأت

على جذب يده بهدوء إليّ، لكنه سحبها مني ثانية وقال: «ما هذه الحماقات التي تقوم بها؟ دعك من هذا». – شاخت يفضل صحبتي، غير أني لا ألاحظ هذا بوضوح، ولكن في مثل هذه الأمور ليس الوضوح ضروريًا. وأنا في واقع الأمر أرغب جدًا بصحبته وأرى فيها إغناءً لوجودي. ومن الطبيعي أني لا أفاتحه بمثل هذه الأمور أبدًا. نتحدث عن أمور سخيفة، وأحيانًا في أمور جادة، ولكن دون استخدام كلمات كبيرة. الكلمات الكبيرة مملة جدًا. ألاحظ هذا من خلال لقاءاتنا في حجرتي أنا وشاخت: نحن تلامذة معهد بنيامنتا محكومون غالبًا بتبطلٍ غريب طيلة نصف النهار، فنقبع، نجلس، نقف أو نستلقي دائمًا في مكان ما. في حجرتي غالبًا ما نشعل شموعًا أنا وشاخت لمتعتنا الخاصة، وهو أمر محظور تمامًا، ولكن لهذا تحديدًا نقْدِم على إيقادها. فلتحظر التعليمات ما تشاء: لاشتعال الشموع جمالية يلفها الغموض. وكيف يبدو وجه رفيقي عندما تنيره الشعلة الحمراء الصغيرة برقة. عندما أرى شموعًا موقدة، أتراءى لنفسي ثريًا: وفي اللحظة التالية يأتي دائمًا الخادم ويناولني الفراء. يا له من هراء، ولكن لهذا الهراء فمٌ جميل ويبتسم. إن معالم وجه شاخت في الواقع خشنة، لكن الشحوب الذي يغطي الوجه كله يسبغ عليها شيئًا من النعومة. إن أنفه كبير جدًا وكذلك أذناه، أما فمه فمضغوط الشفتين. أحيانًا عندما أرى شاخت في هذه الوضعية، ينتابني إحساس بأن هذا الإنسان قد مر ولابد بتجربة مريرة. كم أحب أمثال هؤلاء الناس، الذين يولِّدون هذا الانطباع الشجي. أهذا هو الحب الأخوي؟ نعم، محتمل.

في يومي الأول تصرفت بحساسية مفرطة مثل مدللِ أمِّه، عندما عُرِضت عليَّ الغرفة، التي كان يُفترض بي أن أنام فيها مع الآخرين، أي مع كراوس وشاخت وشيلينسكي، باعتباري رابع المجموعة. كان الجميع حاضرين، الرفاق، السيد الناظر، الذي كان ينظر إليّ حانقًا، والآنسة. حسنًا، عندها تكوَّمت ببساطة عند قدمي الآنسة وصحت: «لا، يستحيل عليّ النوم في هذه الغرفة. لن أستطيع فيها أن أتنفس. أفضل قضاء الليل في الشارع». –وأثناء كلامي كنت أعانق بذراعي ساقي الآنسة الشابة. بدت منزعجة من ذلك وأمرتني بالوقوف. فقلت: «لن أقف قبل أن تعديني برغبتك في أن تعطيني غرفة تليق بإنسان. أرجوك يا آنسة،

أناشدك أن تضعيني في مكان آخر، بالنسبة لي لا بأس حتى بجحر، ولكن ليس في هذه. أنا لا أريد طبعًا أن أهين زملائي التلاميذ، وإذا كنت قد فعلت هذا فإني آسف، ولكن أن أنام عند ثلاثة، كرابعهم، وفوق ذلك في مثل هذه الغرفة الضيقة؟ هذا غير ممكن. أرجوك يا آنسة». – ابتسمت ابتسامة عابرة، لاحظتُ ذلك، لذلك أضفتُ بسرعة وأنا أضيِّق عناقي لساقيها: «سأكون مطيعًا، أعدك بذلك. سأنفذ جميع أوامرك. ولن تضطري أبدًا أبدًا إلى الشكوى من سلوكي». – فسألتني الآنسة بنيامنتا: «هل هذا مؤكد؟ أني لن أضطر إلى الشكوى أبدًا؟» – «لا، بالتأكيد لا، حضرة الآنسة المحترمة»، أجبتها. تبادلَتْ نظرة مهمة مع أخيها السيد الناظر ثم قالت لي: «قبل كل شيء انهض عن الأرض واقفًا. أفّ. يا له من توسل وتزلف. ثم تعال، لا بأس عندي في أن تنام في مكان آخر». قادتني إلى الحجرة التي أسكنها الآن، أرتني إياها وسألتني: «أتعجبك الحجرة؟» – كنت سليطًا جداً في قولي: «إنها ضيقة. في داري كان هناك ستائر على النوافذ. هناك كانت تدخل أشعة الشمس إلى الغرف. هنا لا يوجد سوى سرير ضيق وحامل طست الاغتسال. الغرف في داري كاملة الأثاث. ولكن لا تغضبي يا آنسة بنيامنتا. إنها تعجبني وأنا شاكر لك. في داري كان الوضع أفخر، أكثر أنسًا، أكثر أناقة، لكن المكان هنا لطيف جدًا أيضًا. اعذريني لكوني أثقل عليكِ بمقارنات مع دارنا وبأمور أخرى لا طائل منها. لكني أجد الحجرة لطيفة جدًا. صحيح أن هذه النافذة في أعلى الحائط لا يمكن حقًا تسميتها نافذة، وأن المكان ككل أقرب ما يكون إلى جحر جرذ أو مِزجَر كلب، لكنه يعجبني، وأنا كما يقال لا أستحي وناكر للجميل، أليس كذلك؟ ربما كان الأفضل الآن، تجريدي من الحجرة التي أقدرها عاليًا حقًا، وأمري على نحو جازم بالنوم عند الآخرين. من المؤكد أن رفاقي يشعرون بأنهم قد أهينوا. وأنت يا آنسة غاضبة. إني أرى ذلك. وهذا يحزنني جدًا». – فقالت لي: «أنت فتى أحمق، وعليك أن تسكت الآن». ومع ذلك ابتسمَت. كم كان غبيًا ذاك كله في اليوم الأول. كم أشعر بالخجل، وحتى اليوم عندما أضطر إلى التفكير بسلوكي غير اللائق حينذاك. في الليلة الأولى كان نومي مضطربًا جدًا. حلمت بالمعلمة. وفيما يخص موضوع الغرفة الفردية، كنت سأكون راضيًا جدًا، لو اضطررت إلى تقاسمها مع شخص أو شخصين. عندما

يكون المرء انطوائيًا يكون سلوكه دائمًا أقرب إلى الجنون.

السيد بنيامنتا عملاق، ونحن التلاميذ أقزام أمام هذا العملاق العابس دائمًا. فبصفته قائدًا وآمرًا لشرذمة من المخلوقات الضئيلة وغير المهمة، كحالنا معشر الفتيان، فإنه في واقع الأمر وبطريقة طبيعية تمامًا ملتزم بالتجهم، فهذه لم تكن ولن تكون أبدًا إحدى المهام اللائقة بإمكاناته: أن يسيطر علينا. لا، فالسيد بنيامنتا قادر على إنجاز ما هو مغاير تمامًا. وهرقلٌ مثل هذا ليس بوسعه طبعًا، أمام تمرين تافه مثل مهمة تربيتنا، سوى أن ينام، أي أن يقرأ جرائده مدمدمًا وممعنًا في التفكير. وبماذا كان السيد بنيامنتا يفكر فعليًا عندما حزم أمره وقرر تأسيس هذا المعهد؟ إني بمعنى ما أتألم عنه، وهذا الشعور يرفع من درجة الاحترام، الذي أكنُّه له. وبالمناسبة في بداية وجودي هنا، في صباح اليوم الثاني، على ما أظن، جرى بيني وبينه شجار حاد. دخلت عليه في مكتبه، ولم يكن مجيئي بغرض الاحتجاج على شيء ما، فقال لي بحزم: «اخرج ثانية وحاول إنْ أمكنك ذلك، أن تدخل إلى الغرفة كإنسان مؤدب». خرجت ثم قرعت الباب، الأمر الذي كنت قد نسيته. «ادخل»، هتف، فدخلت وبقيت واقفًا. «أين انحناءة الاحترام؟ وماذا يقول الإنسان عندما يدخل إليّ؟» – فانحنيت وقلت بصوت بائس: «نهارك سعيد، سيدي الناظر». أما الآن فقد كنت قد خضتُ تدريبًا ممتازًا، بحيث صرت أنطق «نهارك سعيد سيدي الناظر» مثل قذيفة. آنذاك كنت أكره هذا السلوك الخنوع المهذب، فقد كنت أجهل الأسلوب الأفضل. ما كان يبدو لي حينذاك سخيفًا وبليدًا، بتُّ أجده اليوم لائقًا وجميلًا. «ارفع صوتك أيها الوغد»، قال السيد بنيامنتا، وكان عليّ أن أكرر خمس مرات تحية «نهارك سعيد سيدي الناظر». ومن ثم سألني عمّا أريد. كنت مشحونًا بالغضب فقلت: «إني لا أتعلم شيئًا هنا، لا أريد أن أبقى هنا. أرجو أن تعيد لي نقودي، وعندها سأنقلع من هنا. أين هم المعلمون هنا؟ هل هناك أي خطة، أي فكرة؟ هنا لا يوجد شيء، وأصرُّ على المغادرة. ولا أحد، كائنًا مَن كان، سيعيقني عن ترك بؤرة الظلام والتجهيل هذه. أضف إلى ذلك أني فعلًا من عائلة محترمة جدًا، لأترك نفسي عرضة للإرهاق والاستغباء بتعليماتكم المغرقة في السخف. صحيح أني لا أريد مطلقًا العودة إلى دار أبي وأمي، لكني سأخرج إلى الشارع لأبيع نفسي عبدًا، فلن يكون

في ذلك أي ضرر». – وبهذا أفرغت ما لدي من كلام. اليوم لابد من أن أنثني من شدة الضحك، عندما أستعيد في ذاكرتي هذا التصرف الأحمق. أما حينذاك فقد كنت في منتهى الجدية. لكن الناظر صمت. كنت على وشك أن أوجه إليه شتيمة قاسية. فإذا به يقول بهدوء: «الرسوم المالية التي دُفِعت ذات يوم، لا تُعاد إلى أصحابها. أما فيما يتعلق برأيك المخبول بأنه لا يمكنك أن تتعلم أي شيء هنا، فأنت مخطئ، إذ يمكنك أن تتعلم. تعرَّف بالدرجة الأولى على محيطك. رفاقك يستحقون أن يحاول المرء على الأقل أن يتعرف إليهم. تكلم معهم. وأنصحك بأن تكون هادئًا، هادئًا جدًا». – ونطق كلمتي «هادئًا جدًا» كأنه مستغرق في فكرة لستُ أنا المقصود بها إطلاقًا. أبقى جفنيه مسبلين، كي يُفهِمني مدى حسنِ وطيبة نيته. أبلغني دلائل واضحة على انشغاله ذهنيًا وعاد إلى الصمت. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ وسرعان ما انهمك السيد بنيامنتا بقراءة الجرائد. وأحسست بأني مهدد من بعيد بعاصفة رعدية رهيبة وغامضة. فانحنيت عميقًا، حتى كدت ألمس الأرض، لذاك الذي لم يعد يأبه أبدًا لوجودي وقلت له وفق التعليمات: «سلام، سيدي الناظر»، طرقت كعبَي حذائي ببعضهما، وقفت منتصبًا، استدرت، أقصد لا، وإنما بحثت بيدي عن أكرة الباب في حين بقي نظري موجهًا نحو السيد الناظر، وانسحبت عبر الباب إلى الخارج ثانية دون أن أستدير. هكذا انتهت محاولتي للقيام بثورة. ومنذئذ لم تتكرر تلك المشاهد المعاندة. يا إلهي، وقد هُزِمت. لقد هزمني، هو الذي كنت أظنه ذا قلب كبير حقًا، فلم أعارضه ولا حتى برفّة جفن، كما لم أشعر حتى بالإهانة نتيجة هزيمته لي. لكنها سببت لي ألماً وحسب، لا خوفًا عليّ أنا، بل على السيد الناظر. أنا في الحقيقة أفكر دائمًا به، بكليهما، به وبالآنسة، وبكيف يجتران حياتيهما بملازمتنا نحن الفتيان. تُرى ماذا يفعلان في داخل المسكن دائمًا؟ بماذا ينشغلان؟ هل هما فقيران؟ هل الإخوة بنيامنتا فقيران؟ ثمة «غرفٌ داخلية» هنا، لم يسبق لي حتى اليوم أن دخلتها، ولكن كراوس، الذي يفضلانه علينا، نظرًا لولائه المطلق لهما. إلا أن كراوس يرفض تقديم أي معلومة حول طبيعة وحالة مسكن الناظر، بل يبحلق فيَّ فقط عندما أسأله عن هذه النقطة ويصمت. وكم بوسع كراوس أن يصمت. لو كنتُ سيدًا، لوضعت كراوس فورًا في خدمتي. ولكن من المحتمل ذات يوم أن

أدخل بنفسي إلى هذه الغرف. وماذا سترى عيناي حينذاك؟ ربما لا شيء يسترعي الانتباه. بل بالعكس. أنا أعرف أن هناك في مكان ما أشياء رائعة.

ثمة ما هو واضح، هنا يوجد نقص في الطبيعة. حسنًا، إن ما هو موجود هنا، هو بطبيعة الحال مدينة كبيرة. في مسقط رأسي كانت هناك في كل مكان مناظر طبيعية قريبة وبعيدة. أظن أني كنت أسمع الطيور المغردة دائمًا وهي تصدح بغنائها في الطرقات. وكذلك خرير الينابيع دائماً. والجبل المكسو بالحراج كان يطل شامخًا بجلال على البلدة النظيفة. وعلى البحيرة القريبة كان يتنزه المرء مساء بالجندول. الجبال بصخورها وأحراجها والغابات والهضاب والحقول كانت على مسافة خطوات قليلة. الأصوات والروائح الطيبة كانت موجودة دائماً. وطرقات البلدة كانت أشبه بدروب الحدائق، وتبدو ناعمة ونظيفة. والبيوت البيضاء الجميلة تطل بشكل لعوب من الحدائق الخضراء. وكان المرء يرى من بين قضبان سور الحديقة العامة سيدات معروفات، مثل السيدة هاغ، وهي تتمشى هناك. إنه لأمر سخيف في الحقيقة، أقصد أن الطبيعة، الجبل، البحيرة، النهر، الشلال المزبِد، الخضرة، ومختلف أنواع الألحان والإيقاعات كانت دانية تكاد تُلمس. وإذا ما خرج الإنسان فإنه يتمشى كما في الجنة، فزرقة السماء تحيط به في كل مكان. وإذا ما توقف المرء فبوسعه أن يستلقي أينما شاء، ليطلق أحلامه تسرح عاليًا في الهواء، فالأرض تحته مفروشة بالحشائش أو الطحالب. وأشجار التنوب تعبق بقوة بأريجها العاطر. ألن أرى يا تُرى شجرة تنوب جبلي ثانية؟ لن يشكل الأمر مأساة بالمناسبة، فأن تفتقد شيئًا: أمرٌ له أيضًا عبقه القوي. ودارنا الخاصة بأعضاء مجلس المحافظة لم يكن لها حديقة، لكن كل ما يحيط بالمرء كان بمثابة حديقة واسعة جميلة ونظيفة. أرجو ألا يصيبني الحنين. هراء. فالمكان هنا أيضًا جميل.

رغم أنه لا يوجد على وجهي في الواقع ما يستأهل الحفَّ، أهرع من حين لآخر إلى الحلاق، بغية مشوار الطريق وحسب، وأطلب منه حلق ذقني. يسألني معاون الحلاق ما إن كنت سويديًا. أمريكيًا؟ أيضًا لا. روسيًا؟ فماذا أكون إذن؟ أحب الإجابة على مثل هذه الأسئلة المشوبة بالنعرة القومية بصمت مطبق، وترك

الذين يسألونني عن مشاعري الوطنية في غموض مبهم. أو أكذب وأزعم إني دنماركي. ثمة مواقف صدق محددة تجرح المرء أو تُشعِره بالملل وحسب. أحيانًا تلمع الشمس بجنون هنا في هذه الشوارع التي تضج بالحياة. أو يكون الجو ماطرًا أو غائمًا طوال الوقت، الأمر الذي أيضًا أحبه، أحبه جدًا. الناس لطفاء، رغم كوني أحيانًا وقحًا تجاه بعضهم لا على التعيين. كثيراً ما أجلس في ساعة الظهر على مقعد متكاسلًا. أشجار المنتزه باهتة الألوان تمامًا، والأوراق مدلاة للأسفل بثقل غير طبيعي. فيبدو كل شيء هنا أحيانًا وكأنه من صفيح أو من رقائق حديدية. ثم يهطل المطر ثانية ويبلل كل شيء. فتُفتح المظلات وتكرج عربات الخيل على الأسفلت. الناس يسرعون والفتيات يرفعن تنانيرهن. وأن ترى ساقًا تبرز من تحت تنورة لهو مشهد ينطوي على فرادة مريحة. فمثل هذه الساق الأنثوية المشدودة بالجورب قلما يراها المرء، وإذا به يراها فجأة الآن. والحذاء ملتصق بكل جمال بقالب القدمين الجميلتين الطريتين. ثم تسطع الشمس ثانية، وتهب ريح خفيفة، وعندها أفكر بدارنا، نعم، وأفكر بماما. إنها تبكي. لماذا لا أكتب لها أبدًا؟ إني لا أستوعب الأمر، ولا أفهمه أبدًا، ورغم ذلك لا أستطيع حسم أمري للكتابة. الموضوع وما فيه هو أني لا أحب أن أقدم معلومات عن نفسي. أجد الأمر في منتهى السخف. للأسف. ما كان يجب أن يكون لي والدان يحباني. أنا لا أطيق نهائياً أن أكون محبوبًا ومرغوبًا. عليهما التعود على أنه لا ابن لهما.

أن يقدِّم المرء خدمة، لشخص لا يعرفه ولا يهمه شأنه نهائيًا، أجده أمرًا مثيراً، كما لو كنت أطل على فراديس إلهية غامضة. يضاف إلى ذلك في حقيقة الأمر أن المرء يهتم إلى حد ما بالجميع، أو على الأقل بمعظمهم تقريبًا. هؤلاء الذين يعبرون أمامي، يهمني أمرهم نوعًا ما، هذا مؤكد. وبالمناسبة، هذا الموضوع في نهاية المطاف يعد مسألة شخصية. وفيما أمشي تحت الشمس الساطعة أرى أمامي فجأة كلبًا صغيراً يئن عند قدمي، وألاحظ فورًا أن هذا الحيوان الصغير المرَفّه قد شبك قائمتيه الأماميتين القصيرتين بكمامة خطمه، فلم يعد بوسعه المشي. انحنيت وساعدته في رفع الكارثة الكبيرة والخطيرة، وإذا بالسيدة صاحبة الكلب تقترب وتدرك ما جرى فتشكرني. رفعت قبعتي بصورة عابرة

للسيدة وتابعت طريقي. وتلك السيدة تفكر الآن بأن الدنيا لم تخل بعد من فتيان مؤدبين. هذا جيد، أي أنني على العموم قد أسديت خدمة للفتيان. ثم هناك ابتسامة هذه المرأة، التي لم تكن في واقع الأمر جميلة بتاتًا: «شكرًا يا سيدي». لقد جعلتْ مني سيدًا. نعم، فعندما يُحسِن المرء التصرف يكون سيدًا. والذي يوجَه إليه الشكر يكون موضع احترام. ومَن يبتسم يكون جميلًا. كل النساء يستأهلن مجاملات لطيفة، وفي كل امرأة ثمة ما هو رفيع. لقد رأيت غسالات يتحركن مثل ملكات. هذا كله أمره عجيب، بل غريب عجيب، ولكن مثلما لمعت الشمس ومثلما هربت أنا منها.. إلى المتجر الكبير. طلبت هناك أن يلتقط المصور صورة لي، لأن السيد بنيامنتا يحتاج إلى صورة لي. ومن ثم يجب عليّ كتابة موجز لسيرة حياتي مطابق للحقائق. ولهذا أحتاج إلى ورق، أي أني سأستمتع فوق ذلك بالدخول إلى محل خاص بالقرطاسية.

رفيقي شيلينسكي أصله من بولندا، ويتكلم ألمانية جميلة لكنها مكسَّرة. كل ما هو أجنبي يبدو نبيلًا، ولا أعرف ما السبب. وفخر شيلينسكي الأكبر يتركز في دبوس ربطة عنق قابل للإشعال كهربائيًا، تمكن بطريقة ما من الحصول عليه. كما أنه يحب، بل إنه مغرم إلى أكبر حد بإشعال أعواد ثقاب شمعية من القياس الصغير. حذاؤه نظيف وملمَّع دائمًا. والجدير بالملاحظة هو رؤيتنا إياه غالبًا وهو ينظف بدلته ويشمِّع جزمته ويُفَرِّش قبعته. وهو يكثر من النظر إلى نفسه في مرآة جيب رخيصة. وبالمناسبة نحن التلاميذ جميعنا نملك مرايا جيب، رغم أننا في واقع الأمر لا نعرف نهائيًا ما يعنيه الغرور. شيلينسكي رشيق القوام وله وجه جميل جدًا وشعر مموَّج، لا يفتر طوال النهار عن تمشيطه والاعتناء به. يقول إنه يريد الاعتناء بمهر، أي تنظيفه وتمشيطه وركوبه جولة في الحقل، وهذا هو حلمه المفضل. ملكاته العقلية محدودة، أما الكياسة وما شابه ذلك فلا مجال للكلام بشأنها عنده. ورغم ذلك فإنه ليس غبيًا، ربما كان محدودًا، إلا أني لا أستسيغ استخدام هذه الكلمة عند تفكيري برفاقي في المعهد. وليس في كوني الأذكى بينهم ما يدعو إلى سرور خاص بالمرة. ماذا يستفيد المرء من الأفكار والخواطر، إذا كان كما في حالتي، لا يعرف نهائيًا ما يفعل بها؟ حسنًا. لا، لا، سأحاول أن أحدس بالأمور، لكني لا أحب التكبر والشعور بأني أعلى من محيطي.

شيلينسكي سيكون محظوظًا في حياته. النساء سيفضلنه، فهو هكذا يبدو، كمحبوب النساء مستقبلًا. إنه يملك في وجهه ويديه تلك السمرة الفاتحة، التي تذكر المرء بشيء نبيل، وله عينان خجلاوان مثل غزال. عينان فاتنتان. يمكنه بكيانه ككل أن يكون فتى من أشراف الريف، فسلوكه يوحي بضيعة أو عزبة، حيث يمتزج في تربيتها الإنسانية القوية والأنيقة جوهرٌ مديني رقيق مع ما هو ريفي خشن. إنه يحب جدًا مشاوير التسكع في أكثر الشوارع ازدحامًا، وقد يحدث أن أرافقه أحيانًا، الأمر الذي يصدم كراوس، فهو يكره التسكع بأنواعه ويلاحق المتسكعين ويحتقرهم. «هل خرجتما ثانية لتتسليا؟»، هكذا يستقبلنا كراوس عندما نعود إلى البيت. وعن كراوس سيتوجب عليّ أن أحكي طويلاً. إنه الأكثر إخلاصًا ونشاطًا بيننا نحن التلاميذ، والنشاط والاستقامة مجالان واسعان جدًا ولا ينضبان. ما من شيء يمكنه أن يجعلني أنفعل بعمق مثل منظر ورائحة العمل الجيد والصالح. إن استيعاب كلية معنى ما هو سافل وشرير سرعان ما يأخذ مجراه، أما فهم ما هو صالح ونبيل فإنه لمن الصعوبة بمكان ومثير جدًا في الوقت نفسه. لا، الرذائل تثير اهتمامي أقل بكثير من الفضائل. يبدو أنه لابد لي من وصف كراوس، لكني أشعر بخشية حقيقية من ذلك. تُراه فرط حساسية؟ منذ متى؟ آمل ألا يكون كذلك.

بتُّ مؤخرًا أذهب كل يوم إلى المتجر الكبير، لأسأل ما إن كانت صوري ستجهز قريبًا. وفي كل مرة أستطيع أن أركب المصعد إلى الطابق العلوي. من المؤسف أني أستلطف هذا، ثم إنه ينسجم مع حالات طيشي الكثيرة الأخرى. عندما أركب المصعد أشعر بنفسي مثل طفل مواكب لعصره. تُرى هل يشعر الناس الآخرون مثلي؟ موجز سيرة حياتي لم أكتبه حتى الآن. أشعر بشيء من الخجل أن أكتب الحقيقة الصريحة عن ماضيٍّ. نظرة كراوس إليّ تزداد اتهامًا من يوم لآخر. وهذا يناسبني جداً، فأنا أحب أن أرى الأخيار وهم غاضبون قليلًا. ما من شيء ينعش قلبي مثل تقديم صورة خاطئة عن نفسي لأناس أحبهم بكل قلبي. ربما لم يكن هذا عادلًا، لكنه ينطوي على جسارة، ولهذا فهو جائز. لكنه يقارب عندي أن يكون مَرَضيًّا. فأتصور مثلًا، أن من الجميل بصورة لا توصف، أن أموت، وأنا واعٍ على نحو فظيع، بأني أسيء بذلك إلى أحب الناس إلى قلبي وأقدِّم لهم أفكارًا

سيئة عني. لن يفهم أحد ذلك، أو فقط ذاك القادر رغم كل شيء على الإحساس بوابل من الجمال. أن يموت المرء ميتة بائسة بغية تحقيق نزوة فظة، أو حماقة. هل هذا مُحبَّذ؟ لا، بالتأكيد لا. لكن هذه كلها محض حماقات من النوع الأشد فظاظة. ثمة ما يخطر في بالي هنا، وأجد نفسي مضطراً إلى قوله لأسباب لا أعرفها حتى. قبل أسبوع أو أكثر قليلًا كنت لا أزال أملك من المال عشر ماركات. لكن هذه الماركات العشر طارت الآن، إذ دخلتُ ذات يوم إلى مطعم تقوم نساء على الخدمة فيه، انجذبتُ إليه بشكل لا يقاوم. نطَّتْ قبالتي فتاة واضطرتني إلى الجلوس على مضجع. كنت أعرف على نحو شبه مؤكد كيف سينتهي الأمر تقريبًا. عارضتُ نوعًا ما، ولكن من دون أي إصرار. كان كل شيء بالنسبة إليّ سيّان، ولكن ليس كليًا. استمتعت إلى حد لا مثيل له بأن أمثل أمام الفتاة دور السيد النبيل الذي يعامل الآخرين بفوقية. كنا وحدنا تمامًا، وأخذنا نمارس ألطف الحماقات. شربنا. كانت تسرع دائمًا إلى البوفيه لتحضر مشروبات جديدة. أرتني رباط جوربها المثير، وقمت بمداعبته بشفتيَّ. آه، ما أغبى الإنسان. كانت دائمًا تنهض من جديد لتحضر مشروبًا جديدًا ما، وبسرعة كبيرة. كانت تريد كسب كمية كبيرة من النقود من هذا الفتى الغبي وبأسرع ما يمكن. وأنا أتفهم ذلك تمامًا، إلا أن ما أعجبني تحديداً هو اعتبارها إياي غبيًا. إنه لنوع من الفجور الغريب: أن تشعر بالسرور خفية لقدرتك على ملاحظة أنك تُسرَق قليلًا. ولكن كم وجدتُ كل هذا ساحراً. كل شيء حولي تلاشى في موسيقى ناي غزلية. كانت الفتاة بولندية رشيقة ومطواعة وبلا روادع بصورة فاتنة. فكرتُ: «ها قد ذهبت ماركاتي العشر». ثم قبّلتها، فقالت: «قل لي، من أنت؟ إنك تتصرف مثل رجل نبيل». لم أكن لأكتفي من تشمُّم الشذى الذي يفوح منها. لاحظتْ ذلك ووجدته لطيفًا. وفي حقيقة الأمر: ألا يكون المرء وغدًا، إذا ذهب دون إحساس بالحب والجمال، إلى أماكن، حيث الفتنة فقط هي التي تعذر ما بدر عن الخلاعة؟ كذبت عليها وزعمت أني سائس خيل في اصطبل، فقالت: «لا يمكن، فتصرفاتك أجمل بكثير من سلوك سائس خيل. قل لي نهاركِ سعيد». ففعلت ما يقال له نهارك سعيد في مثل هذه الأماكن، أي أنها فسرت لي ذلك وهي تضحك وتلعب وتقبّلني، وعندها قمت بذلك. بعد دقيقة واحدة وجدت نفسي في الطريق مع

هبوط المساء مفلسًا حتى القرش الأخير. كيف يبدو لي ذلك الآن؟ لا أدري. لكني أعرف أمرًا واحدًا: لا بد لي من الحصول على بعض النقود. ولكن كيف لي ذلك؟

صباح كل يوم تقريبًا تقع بيني وبين كراوس مبارزة كلامية مهموسة. إذ يعتقد كراوس دائمًا بأن عليه أن يدفعني إلى العمل. وربما لم يكن مخطئًا في هذا الأمر نهائيًا، إذا افترض أني لا أنهض من فراشي بسرور، لكني من ناحية أخرى أجد الأمر لذيذًا جدًا إن بقيت مستلقيًا لمدة أطول قليلًا مما يجوز لي. فألّا تقوم بما يجب، يكون أحيانًا مثيراً إلى درجة لا يسعك معها إلا أن تفعلها. ولهذا السبب أحب من الأساس كل أنواع الإلزام، لأنها تسمح للمرء بأن يُسَرَّ بمخالفة القانون. لولا الواجب، لو لم يكن القيام بالواجب يحكم العالم، لمتُّ، لنفقت جوعًا، لكُسِحتُ من الملل. لذا يجب على المرء أن يدفعني، يجبرني، أن يتولى أمري. أنا أرغب في ذلك بلا نقاش. وفي نهاية المطاف أنا مَن يحسم الأمر، أنا وحدي. إني أزعج دائمًا القانون المقطب الجبين قليلًا باتجاه الغضب، وأبذل جهدي بعد ذلك لتهدئته. وكراوس هنا في معهد بنيامنتا يمثل جميع التعليمات السارية، وبناء على ذلك فإني أستفز دائمًا أفضل زميل للمبارزة قليلًا. وأنا مهووس بالمشادات الكلامية. أشعر بأني سأمرض إن لم أدخل في مشاحنة، وكراوس مناسب جدًا للتشاحن والاستفزاز. فهو محق دائمًا: «ألا تريد أن تنهض أخيراً يا ممسحة كسولة!» – وأنا مخطئ دائمًا: «نعم، نعم، اصبر، أنا قادم». – والمخطئ يكون وقحًا كفاية ليطالب المصيبَ بالصبر دائمًا. المصيب محموم، والمخطئ يتظاهر دائمًا بهدوء متعالٍ وماجن كواجهة للاستعراض. وذاك المندفع بنيته الطيبة (كراوس) ينهزم باستمرار أمام (ي) مَن لا يميل قلبه صراحة إلى الطيبة والقيام بالواجب. أنا المنتصر، لأني لا أزال مستلقيًا في سريري، بينما كراوس يرتجف غضبًا، لأنه لا يزال يقرع الباب عبثًا ويخبطه ويدك الأرض بقدمه وهو مضطر لأن يقول: «هيا، انهض ياكوب. ألن تتحرك أخيراً! يا إلهي، يا له من كسلان». – أنا أجد القادر على الغضب شخصًا مهضومًا أستلطفه. وكراوس يغضب في كل مناسبة. وهذا جميل جداً ومسلٍ وراقٍ. ونحن نناسب بعضنا بعضا بصورة ممتازة، فقبالة الغاضب لابد من أن يقف الآثم دائمًا، وإلا فسيكون هناك نقص. بعد أن أكون قد نهضت، أتظاهر بأني أقف هناك متبطلًا، فيقول:

«وها هو يقف مبحلقًا، المستجد، بدل أن يمد يد العون». ما أروع هذا المشهد. إني أجد همهمة إنسان متبرمٍ أجمل من خرير جدول يتلألأ في الغابة تحت شمس يوم أحد قبل الظهيرة. الناس، الناس، والناس فقط! نعم، إنهم يُشعروني بالحيوية: أنا أحب الناس. إن حماقاتهم وانفعالاتهم السريعة أحَب إليّ وأثمن عندي من أروع أعاجيب الطبيعة. – علينا نحن التلاميذ في الصباح الباكر قبل استيقاظ السادة، تنظيف وترتيب غرفة الدروس والمكتب. يقوم بهذا اثنان منا بالتبادل. «هيا استيقظ. أطِع وأسرع!» – أو: «سرعان ما سينفد صبري. أو: «استيقظ، استيقظ. حان الوقت. كان عليك منذ مدة أن تمسك المكنسة بيدك وتبدأ». – كم يسليني هذا. وكراوس، الغاضب أبدًا، كم أحبه.

لابد لي من العودة مرة أخرى إلى البداية، إلى اليوم الأول. في الفرصة بين الدروس قفز شاخت وشيلينسكي، اللذان لم أكن أعرفهما حينذاك، إلى المطبخ وأحضرا إلى غرفة الدروس طعام الفطور في صحون. ووضعا أمامي أنا أيضًا بعض الطعام، لكني لم أشعر بأي شهية للأكل، فلم ألمس شيئًا منه. فقال لي شاخت: «يجب أن تأكل»، وتبعه كراوس بقوله: «عليك أن تأكل كل ما هو موجود على صحنك ولا تترك شيئًا، هل فهمت؟» – مازلت أذكر التأثير السلبي لهذه الطريقة في الكلام عليّ. حاولت أن آكل، لكني تركت مشمئزاً معظم الطعام في الصحن. فاندفع كراوس إليَّ ونقر بأصبعه على كتفي بكل وقار وقال: «أيها المستجد عندنا هنا، ليكن بعلمك أن التعليمات توجِب الأكل عند وجود الطعام. أنت متكبر، ولكن لا تشغل بالك، فالتكبر سوف يغادرك قريبًا. هل يمكن للمرء أن يلتقط من الطريق شرائح خبز مدهونة بالزبدة ومغطاة بقطع من اللحوم المقدَّدة؟ ما رأيك؟ حافظ على هدوئك وانتظر فحسب، فلربما عاودتك الشهية. على كل حال يجب عليك أن تأكل ما بقي في صحنك، هذا أمر مفروغ منه. هنا في معهد بنيامنتا لا يُسكَتُ على ترك بقايا في الصحن. هيا، كُلْ، هيا بسرعة. أهو ارتيابٌ مشحون بالقلق على الرغبة في الحفاظ على الأكابرية. سمات الأكابرية ستغادرك قريبًا، صدقني. أتريد أن تقول لي ألا شهية لديك؟ لكني أنصحك بأن توجِدَ الشهية. أنت لا تملكها بسبب تكبرك وحسب، هذا هو الأمر. إليَّ بهذا. هذه المرة سأساعدك في إنهاء طعامك، علمًا بأن هذا يتعارض كليًا مع

التعليمات كافة. هكذا. أترى كيف يمكن للمرء أن يأكل هذه الشريحة؟ وهذه؟ وهذه؟ بلمح البصر انتهى الأمر، أقول لك». – كم كان هذا كله محرجًا لي. لقد انتابني نفور حاد من الفتيان الآكلين، واليوم؟ اليوم أمسح صحني نظيفًا بكامله كأي واحد من التلاميذ. حتى أني أرحَّب بسرور كل مرة بالطعام المتواضع والمحضَّر جيدًا، ولن يخطر في بالي طوال حياتي أن أزدريه. نعم، لقد كنت في البداية مغروراً ومتكبراً، مزعوجًا مما لا أدري ما هو، ومذلولًا بطريقة لم أعد أعرف ما هي. كل شيء كان بالنسبة إليّ جديدًا، وبالتالي معاديًا، وفيما عدا ذلك كنت أحمق لا يستهان به. ومازلت أحمق حتى اليوم، ولكن بأسلوب ألطف وأكثر ودّية. وكل شيء يعتمد على الأسلوب. قد يكون المرء مخبولًا وجاهلًا: ولكنه إنْ عرف نوعًا ما كيف يتصرف ويلاطف ويتحرك، فإنه لم يضِع بعد، بل سيجد طريقه في الحياة، ربما أفضل من الذكي الممتلئ بالمعرفة. الأسلوب هو الأساس، نعم، نعم.

لقد عانى كراوس جداً في حياته، قبل مجيئه إلى المعهد. كان والده مراكبيًا، وقد رافقه على متون ناقلات فحم ضخمة صعوداً ونزولًا على نهر إلْبِه. كان الشغل صعبًا وقاسيًا جدًا، استمر فيه إلى أن سقط مريضًا. وهو يريد الآن أن يصير خادمًا، خادمًا حقيقيًا لسيد حقيقي، وهو بصفات الطيبة التي يتحلى بها، كأنه خُلق لهذا العمل. سيكون خادمًا رائعًا، فليس شكله الخارجي وحده هو ما يتلاءم مع مهنة الخضوع والتساهل، لا، بل روحه وطبيعته بمجملها، والجوهر الإنساني كله لرفيقي، ينطوي على ما هو خدمي بأفضل معنى للكلمة. أن يخدم! وحبذا لو يحصل كراوس على سيد محترم، هذا ما أتمناه له. ثمة سادة أو أسياد، باختصار، رؤساء عمل، لا يحبون ولا يرغبون في أن يُخدَموا بصورة تامة، ولا يستوعبون معنى تلقي خدمات فعلية. أما كراوس فيمتاز بأسلوب يؤهله لخدمة أمير، أي لسيد راق جدًا. أمثال كراوس لا يجوز أن يُشَغلِهم المرء كخدم عاديين أو كعمال. إنه قادر على تمثيل سيده. ووجهه يمتلك القدرة على عكس أي أسلوب، وذاك الذي سيستأجره بإمكانه أن يعتمد على سلوكه وتصرفه. يستأجره؟ نعم، هكذا يقال. وكراوس سوف يؤَجَّر ذات يوم لأحدهم أو يُستأجَر من قبل أحدهم. وهو مسرور بذلك، ولهذا يتعلم الفرنسية بكل نشاط ومثابرة ليُدخِلها

في رأسه الخامل نوعًا ما. ولكن هناك ما يقلقه. لقد التقط عند الحلاق، حسب قوله، وسامًا شنيعًا، إكليلًا من وريقات حمراوات صغيرة، باختصار، بقع صغيرة، باختصار أشد وبلا شفقة، بثور. حسنًا، هذا أمر رديء وقبيح حتمًا، ولاسيما أنه يريد أن يلتحق بسيد راقٍ ومحترم جدًا. ما الذي يمكن عمله؟ مسكين يا كراوس! بالنسبة إليّ مثلًا، هذه البقع التي تشوه منظره لن تعيقني أبدًا عن تقبيله، إنْ دعا الأمر لذلك. بكل جدية: لن تعيقني حقًا، لأني سأتوقف عن رؤيتها كليًا، لن أرى أبدًا أنه ليس وسيمًا، بل سأرى روحه على وجهه، والروح هي ما يستحق التغزل به. غير أن سيده وآمره المستقبلي سيفكر بطريقة مختلفة تمامًا، ولهذا يضع كراوس مراهم على الجروح البشعة التي تشوهه. ويلجأ إلى استخدام المرآة كثيراً كي يراقب خطوات الشفاء، وليس نتيجة غرور فارغ. فلولا هذا العيب، لما نظر في المرآة نهائيًا، لأن الدنيا لن تنجب فتى أبعد منه عن الغرور والمباهاة. السيد بنيامنتا الذي يبدي اهتمامًا حيويًا بـ كراوس يكثر من السؤال عن الإصابة وعن اختفائها المأمول. يُفترض بـ كراوس قريبًا أن يخرج إلى الحياة العملية ويأخذ موقعه فيها. وأنا أتهيب من لحظة انفكاكه عن المدرسة. لكن الأمر ليس عاجلًا. فما زال أمامه وقت طويل سيحتاجه لتطبيب وجهه، الأمر الذي لا آملُ أن يطول، بل آملُ رغم ذلك. سأشعر بنقص كبير إذا غادر. يمكن أن يلتحق باكراً بسيدٍ لن يتعرف جيدًا مزاياه، وأنا سأفتقد باكراً إنساناً،

أحبه، دون أن يعرف ذلك.

أكتب هذه السطور مساء غالبًا، قرب اللمبة الموضوعة على الطاولة الطويلة في غرفة الدروس، حيث يجب علينا نحن التلاميذ بذهن متبلد غالبًا أو غير متبلد أن نجلس إليها. أحياناً يغلب الفضول على كراوس فيسترق النظر من فوق كتفي. وذات مرة نهرته كي يعود إلى رشده بقولي: «ولكن قل لي رجاء يا كراوس، منذ متى تهتم بأمور لا تعنيك في شيء؟» – فانزعج جدًا، كجميع الذين يُضبَطون في حالات تسلل فضولي. أحياناً أجلس لوحدي كليًا حتى ساعة متأخرة من الليل متبطلًا على مقعد في الحديقة العامة. أعمدة الإنارة مضاءة، ونورها الكهربائي الباهر يهوي من بين أوراق الأشجار سائلًا وحارقًا. كل شيء حار ويعد بخفايا

غريبة. ثمة أناس يتمشون ذهابًا وإيابًا. يتناهى همس من الممرات المخفية لمواقف السيارات. ثم أمشي إلى البيت وأجد الباب مقفلًا. «شاخت»، أصيح بصوت خافت، فيرمي لي الرفيق، حسب اتفاقنا، المفتاح إلى فناء المعهد. أتسلل على رؤوس أصابع قدميّ -لأن البقاء خارج المعهد لمدة طويلة مساء ممنوع- إلى حجرتي وأستلقي في سريري، ثم أحلم. كثيراً ما أحلم بأمور فظيعة. حلمت ذات ليلة بأني قد صفعت ماما البعيدة والحبيبة على وجهها. وكم صرختُ حتى استيقظت فجأة. والألم من فظاعة تصرفي المتخيل انتزعني من سريري. وعند صورة العذراء ذات الشعر الذي يوحي بالحرمة، انتزعتها عن الجدار ورميتها على الأرض. ما الداعي للتفكير بهذا الأمر الآن! انبثقت الدموع من عيني الأم مثل شعاعين قاطعين. ما زلت أذكر بوضوح، كيف مزقت الولولة فمها، وكيف كانت تسبح في الألم، ومن ثم كيف انحنى عنقها هاويًا إلى الخلف. ولكن ما الهدف من تخيل هذه الصور مجدداً؟ غدًا سيتحتم عليّ كتابة السيرة الذاتية، وإلا لتعرضت إلى خطر أن أواجه تأنيبًا حادًا. مساء في التاسعة ننشد نحن الفتيان دائمًا ترتيلة نوم قصيرة، فنقف بشكل نصف دائرة قرب الباب المؤدي إلى الغرف الداخلية، ثم يُفتح الباب وتظهر على عتبته الآنسة بنيامنتا مرتدية ثوبًا أبيض منسدلًا بارتياح حتى الأرض، تقول لنا «طابت ليلتكم يا فتيان»، تأمرنا بأن نهجع إلى أسرتنا وتنبهنا إلى ضرورة التزام الهدوء. ثم يطفئ كراوس كل مرة لمبة غرفة الدروس، ومنذئذ يُحظر إصدار أي صوت مهما كان خافتًا. فيتوجب على كل منا السير على رؤوس أصابع قدميه متوجهًا إلى سريره. ما أغرب هذا كله! وأين ينام آل بنيامنتا؟ مثل الملاك تبدو الآنسة عندما تقول لنا طابت ليلتكم. كم أحترمها. مساءً لا نرى السيد الناظر نهائيًا، وسواء كان هذا مستغربًا أو لا، إلا أنه يثير الانتباه.

يبدو أن معهد بنيامنتا كان يتمتع سابقًا بسمعة وإقبال أكبر. فعلى أحد جدران غرفة الدروس عُلقت لوحة فوتوغرافية كبيرة تظهر فيها صور عدد كبير من الفتيان من دورة تعليمية سابقة. وغرفة دروسنا بالمناسبة شبه عارية من حيث الزينة، فما عدا الطاولة الطويلة واثني عشر كرسيًا وخزانة جدارية كبيرة وطاولة جانبية صغيرة وخزانة ثانية صغيرة وحقيبة سفر قديمة وبعض الأشياء الأخرى

القليلة الأهمية لا توجد قطع أثاث. وفوق الباب المؤدي إلى العالم الغامض للغرف الداخلية، عُلِّق كنوع من الزينة الجدارية، سيف كئيب المنظر وقد تقاطع غمده معه، وثمة خوذة تتوِّج الوسط أعلاهما. هذه القطعة التزيينية توحي بأنها رسم أو كأنها برهان أنيق على التعليمات النافذة هنا. وبالنسبة إليّ شخصيًا، فإني لا أرغب في الحصول كهدية على هذه القطعة التزيينية التي اشتُرِيَت من أحد تجار الخردوات. كل أسبوعين يتم تنزيل السيف والخوذة، من أجل تنظيفهما، وهي بادرة لطيفة جدًا، على الرغم من أنه لا شك عمل بالغ السخف. إضافة إلى هذه الزينة عُلِقت في غرفة الدروس صور قيصر ألمانيا وزوجته المرحومين. يبدو القيصر العجوز مسالماً على نحو لا يُصدق في حين تتسم القيصرة ببساطة بطابع أمومي. كثيراً ما نقوم نحن التلاميذ بتنظيف غرفة الدروس بالصابون والماء الفاتر، بحيث يلمع كل شيء فيها بعد ذلك وتفوح منه رائحة النظافة. علينا نحن بأنفسنا أن نقوم بكل شيء، وقد لبس كل منا، نحن عاملات التنظيف، مريولًا يُذكر بالعنصر الأنثوي ويجعلنا جميعنا بلا استثناء نبدو مضحكين. ولكن خلال أيام التعزيل تلك يجري كل شيء على نحو مُسلٍّ. الأرضية تُلمَّع بسرور، كل الأغراض بما فيها تلك التي في المطبخ تُفرك حتى تلمع باستخدام المماسح ومساحيق التنظيف المتوفرة بكثرة. الطاولات والكراسي نرشها بماء غزير، ونلمع قبضات الأبواب والنوافذ، وننفخ أنفاسنا الحارة على زجاج النوافذ وننظفه، بحيث يكون لكل منا مهمته الصغيرة لينجزها. في مثل أيام التنظيف والفرك والغسل هذه نصير مثل أقزام هاينْتسِل الخرافيين، الذين كما هو معروف، يقومون بكل ما هو صعب ومجهد انطلاقًا من طيبة قلوبهم الخارقة وحسب. وما نقوم به نحن التلاميذ، ننفذه لأنه يجب علينا ذلك. ولكن لماذا يجب علينا ذلك، سؤال لا يعرف جوابه أي منا حقًا. إننا نطيع دون أن نفكر بما ستؤول إليه كل هذه الطاعة العمياء ذات يوم، ونعمل، دون أن نفكر، ما إن كان صحيحًا وعادلًا، أن نكون مجبرين على العمل. في أحد أيام التنظيف تلك اقترب مني تريمالا، أحد الرفاق وأكبرنا سنًا، بحركة حمقاء بشعة، وقف خفية خلفي وأمسك بيده المقرفة (الأيدي التي تفعل ذلك تكون فظة وبغيضة) عضوي، وذلك بقصد أن يُشعرني بنشوة مقرفة تقارب نشوة

حيوان. استدرتُ بغتة وضربت سيئ السمعة فطرحته أرضًا. أنا لست بهذه القوة عادة، وتريمالا يفوقني قوة. لكن الغضب منحني طاقات لا تقهر. نهض تريمالا وهجم عليّ، وعندها فُتح الباب ووقف السيد بنيامنتا على عتبته وهو ينادي: «ياكوب الوغد، تعال إليّ!» فتوجهت إلى سيدي الناظر، الذي لم يسألني إطلاقًا، مَن الذي بدأ الشجار، بل ضربني مرة على رأسي وغادر. أردت اللحاق به، كي أصرخ في وجهه، كم كان ظالماً، إلا أني سيطرت على نفسي، واستوعبت الوضع، ألقيت نظرة على جميع الفتيان وعدت إلى عملي. ومنذئذ لم أتبادل أي كلمة مع تريمالا، كما أخذ من جانبه يتجنبني دائماً، وهو يعرف السبب. ولا يهمني إطلاقًا ما إنْ كان قد أسف أو ما شابه ذلك. تلك الحادثة الفظة طواها النسيان كما يقال. تريمالا اشتغل سابقًا على متن سفن بحرية. إنه إنسان فاسد، ويبدو أنه مسرور بصفاته المشينة. وهو بالمناسبة جاهل جدًا، ولهذا فإنه لا يلفت انتباهي. خبيث وفي منتهى الغباء في الوقت نفسه، أي أنه لا يثير الاهتمام. لكن تريمالا هـذا زودني بخبـرة: أن يكـون المـرء مسـتعدًا لجمـيع احتمـالات الاعتـداءات والإساءات.

غالبًا ما أخرج من المعهد إلى الشارع، لأجد نفسي في خضم حكاية خرافية تبدو جامحة، فيا للتدافع والتزاحم، والصليل والطقطقة. يا للصياح والخبط، والطنين والأزيز. وكل ذلك في أضيق حيز. الناس يمشون تقريبًا لصق عجلات السيارات والعربات، الأطفال والفتيات والرجال والنساء الأنيقات، وفي الزحام يرى المرء عجائز وكسحان وذوي رؤوس مضمدة. وثمة دائماً مزيد من القطارات والبشر وعربات النقل. وحافلات الترام الكهربائي تبدو مثل علبٍ حُشرِت فيها الدمى حشراً. والباصات تخض أثناء عبورها مثل خنافس الحقل. وهناك عربات تبدو في مسيرها مثل أبراج المشاهدة، حيث يجلس الناس على مقاعد مرفوعة عاليًا فيعبرون من فوق رؤوس كل ما يمشي ويركض وينط. وفي الحشود الموجودة تختلط حشود جديدة، وكل شيء يروح ويأتي، يظهر ويغيب في تتالٍ لا يتوقف. ثمة جياد تخبّ. وقبعات بريش زينة رائعة المظهر تومئ من عربات سادة مسرعة. كل أوروبا ترسل إلى هنا نماذجها البشرية. يتجاور في الشارع الأكابر مع الأسافل والحقراء، الناس يمشون، لا أحد يعرف إلى أين، وهاهم يعودون،

لكنهم أناس آخرون، ولا أحد يعرف من أين يأتون. يظن المرء أنه قادر على التكهن بذلك إلى حدٍ ما، ويشعر بالسرور للجهد الذي بذله لحل اللغز. والشمس مازالت تسطع على الجميع، فتضيء أنف فلان هنا ومقدمة قدم فلان هناك. كما تظهر الأثواب المزينة بأشغال الدانتيلا متلألئة بطريقة تربك الحواس. والكلاب الصغيرة تُساق في عربات، أو تجلس في أحضان عجائز راقيات، أو تمشي الهوينى. وتكاد الصدور تصدم المرء في وجهه وهي مضغوطة في أثواب أو مشدات، صدور أنثوية ناضجة. وهناك طبعًا الكثير من لفافات السيجار في كثير من زوايا أفواه الرجال. ويخيل للمرء أنه في شوارع غير متوقعة سيرى أناسًا آخرين، فإذا بهم كما في كل الأنحاء المكتظة بهم. مساءً بين السادسة والثامنة يكون الازدحام على أشده وأفخمه، ففي هذا الوقت تتمشى صفوة المجتمع. ما قيمة المرء في هذا الطوفان، في هذا التيار البشري الملون والذي لا نهاية له؟ أحيانًا تصطبغ جميع هذه الوجوه المتحركة بحمرة شعاع شمس الغروب. وعندما يكون الجو رماديًا وماطرًا؟ عند ذلك تذهب جميع هذه الشخوص بسرعة وأنا معهم، مثل شخوص الأحلام، إلى تحت قماش مظلات المحلات للبحث عن شيء ما، ولكن على ما يبدو، دون أن نجد شيئًا جميلًا ومناسبًا. الكل يبحث هنا، الكل يتوق للحصول على ثروات وأشياء خرافية تجلب الحظ. هنا يمشي الناس سريعًا، لا، بل يسيطرون على أنفسهم جميعهم، لكن التوق، والعذاب والقلق يلمعون وميضًا من العيون الطامعة. ومن ثم يعود كل شيء ليسبح في دفء شمس الظهيرة. يبدو أن كل شيء ينام، حتى العربات والجياد والعجلات والأصوات أيضًا. والبشر ينظرون من دون فهم. الأبنية العالية المنهارة ظاهريًا تحلم على ما يبدو. ثمة فتيات تركضن، وطرود تُحمَل. هناك مَن يحاول معانقة شخص آخر. عندما أصل إلى البيت، أجد كراوس جالسًا يسخر مني. أقول له أن على المرء التعرف على الدنيا قليلًا. «التعرف على الدنيا؟» يقول كالغارق في أفكار عميقة، ويبتسم بازدراء.

بعد نحو أسبوعين من انتسابي إلى المعهد ظهر هانس في قاعاتنا. وهانس هو فتى الفلاح الحق، مثلما ورد في كتاب حكايات الأخوين غْريم. جاء إلينا من أعماق مقاطعة مِكلينبورغ، تفوح منه روائح مروج غنية بالزهور واصطبل البقر

والبيت الفلاحي. إنه رشيق وخشن وبارز العظام، ويتكلم لغة فلاحية طيبة السريرة، تعجبني في واقع الأمر، إذا بذلت جهدي لسد منخرَي. لا لأن رائحة هانس كانت كريهة، أبدًا، إلا أن المرء يلجأ إلى سد الأنف الحساس، سواء فكريًا أو ثقافيًا أو روحيًا، وذلك لاإراديًا بالطبع، لأن المرء لا يريد الإساءة إلى هانس الطيب. وهو لا يلاحظ مثل هذه الأمور مطلقًا، لكن هذا الإنسان الريفي بالمقابل يرى ويسمع ويحس على نحو سليم جدًا وبسيط. إنه يشبه الأرض نفسها، والمرء يصادف أخاديدَ ومنحنياتٍ عندما يتعمق في منظر هذا الفتى، لكن المرء ليس بحاجة إلى التعمق هنا، لأن هانس لا يستفز أي فطنة عميقة الفكر. أمره بالنسبة إليّ ليس سيَّان، أبدًا، ولكنه، كيف عليّ أن أقول، بعيد نوعًا ما وقليل الأهمية. لا يأخذه المرء على محمل الجد، إذ ليس لديه ما يصعب تحمله، مما يوقظ الأحاسيس. إنه الفتى الريفي في حكايات الأخوين غريم. شيء ألماني عتيق، لطيف، مفهوم، وأساسي من النظرة العابرة الأولى. وأن تكون رفيقًا جيدًا لهذا الشخص يعد أمرًا قيمًا. في المستقبل سيشتغل هانس بمشقة دون أن يزفر ويتنهد. لن يبالي عميقًا بالجهود والهموم والحوادث المحرجة، فهو يفيض قوة وصحة. كما أنه إضافة إلى ذلك ليس معدوم الوسامة. وبصورة عامة: لابد لي من أن أضحك من نفسي، فأنا أجد في مظهر كل شيء وفي مخبره شيئًا جميلًا ما، مهما كان ضئيلًا. إني أحبهم جميعهم، زملائي التلاميذ ورفاق المعهد.

هل أنا وحدي هنا ابن مدينة كبيرة؟ هذا محتمل بكل سهولة. أنا لا أترك أحدًا يستغلني أو يفاجئني. وأنا هادئ إلى حد لا يوصف رغم الاضطرابات التي قد تدهمني. لقد مشطّتُ المحافظة خلال ستة أيام. وقد نشأت بالمناسبة في مدينة تعد في كل الأحوال مدينة عالمية صغيرة. ورضعت جوهر المدينة والحس المديني مع حليب أمي. رأيت في طفولتي عمالًا سكارى وهم يغنون ويترنحون يمنة ويسرى. ومنذ أن كنت صغيراً تراءت لي الطبيعة كشيء سماوي ناء. وهكذا فإني أفتقد الطبيعة. ألا يجب على الإنسان أن يفتقر إلى الرب أيضًا؟ أن تعرفَ أنّ الخير والطهر والسمو متوارون وراء الضباب في مكان ما، وأن تبجله وتصلي له بكل سكون وفي الوقت نفسه بحرارة إيمان غير واضح السمات: أنا معتاد على هذا. عندما كنت طفلًا رأيت ذات يوم عامل مصنع سويسري – فرنسي يسبح في

دمائه جراء طعنات سكين عديدة، كان ميتًا قرب جدار. وفي مرة أخرى، في أيام الفوضوي راڤاشول تناقل الأطفال خبر أن قنابل الفوضويين سترُمى عندنا أيضًا وإلخ. أيام انقضت. كنت أريد الكلام في موضوع مغاير تمامًا، عن التلميذ بيتر، عن بيتر الطويل. هذا الفتى الفارع الطول غريب الأطوار جدًا. إنه من مدينة تِبليتس في بوهيميا ويتكلم السلافية والألمانية. والده شرطي، وبيتر تلقى تدريبًا تجاريًا في متجر للحبال والخيطان، ولكن يبدو أنه قد لعب دور الجاهل، عديم النفع وسيئ الخلق، الأمر الذي أجده بيني وبين نفسي مسليًا جدًا. يقول إنه قادر أيضًا على التكلم بالهنغارية والبولونية إذا طُلِب منه ذلك، ولكن ما من أحد هنا يطلب منه مثل هذه الأمور. يا لها من معارف لغوية عريضة! لكن بيتر بلا نقاش هو الأكثر حمقًا وخراقة بيننا نحن المتدربين، وهذا بنظري، غير الحاسم، يؤهله ويكلله بالأوسمة، لأن الحمقى أعزاء على قلبي بصورة لا توصف. فأنا أمقت الأشخاص الذين يبغون معرفة كل شيء، واللامعين في المعرفة والفطنة والمتبجحين. الماكرون والمحنكون يعدّون بنظري مقرفين لا يجوز الاقتراب منهم. وفي هذه النقطة ما أحَبَّ بيتر. يكفيه جمالًا أنه طويل إلى حد إمكانية كسره نصفين، والأكثر جمالًا هي طيبة قلبه، التي تهمس له باستمرار بأنه فارس وله مظهر متشرد نبيل وأنيق. يا له من أمر طريف مسلٍ. إنه يحكي دائمًا عن مغامرات مُعاشَة، والأكثر احتمالًا هو أنها غير معاشة. حسنًا، الواقع هو أن بيتر يمتلك أفخر وأنعم عصا مشي في الدنيا، ويخرج بها دائمًا ليتمشى في أكثر الشوارع حيوية. التقيته مرةً في شارع ف ...، وهذا الشارع هنا هو مركز الحياة العالمية في مدينة كبرى. ومن مسافة بعيدة بدأ يشير إليّ بهز يده ورأسه وعصاه. ثم عندما اقترب مني شملني بنظرة أبوية مهمومة وكأنه أراد أن يقول لي: «ياكوب، ياكوب، بعدْ بكير على هذه الأمور». – ثم ودعني كأنه أحد كبار الكرة الأرضية، كأنه رئيس تحرير جريدة عالمية لا يجوز أن يضيِّع وقته الثمين. ثم رأيت قبعته الصغيرة المستديرة الغبية واللطيفة تختفي في زحام بقية الرؤوس والقبعات، أي أنه كما يقال غاص في الكتلة البشرية. إن بيتر لا يتعلم شيئًا إطلاقًا، رغم أنه بحاجة إلى ذلك ولو من باب المزاح، وهو ظاهريًا لم ينتسب إلى معهد بنيامنتا إلا ليبرز بحماقاته اللذيذة. ومن الممكن هنا أن تنضاف كميات

جوهرية من الحمق إلى ما عنده أصلًا، وما المانع من أن يزدهر حمقه؟ أنا مثلاً مقتنع، بأن حياة بيتر ستكسب كثيراً جدًا من ذلك على طريق النجاح، والغريب أني فرِحٌ له بذلك، نعم، وقد أذهب أبعد من هذا. يخامرني شعور، وهو موآسٍ ومدغدغ معًا، بأني لاحقًا في الحياة سأحصل على سيد مثله كرئيس، مثلما سيصير بيتر سيدًا، فالحمقى من أمثاله مخلوقون للمراتب العليا، للصعود، لحياة الرفاهية وتوجيه الأوامر، والأذكياء بمعنى معين، مثلي أنا، عليهم أن يجعلوا نوازعهم الجيدة تزهر إلى أن تضمحل قوتها في خدمة آخرين. أنا، أنا سأكون شيئًا متدنيًا وصغيراً جدًا. والإحساس الذي ينبئني بهذا، يماثل حقيقة نهائية لا تمس. يا إلهي، ورغم ذلك أملك الكثير والكثير من الشجاعة.. ألأحيا؟ ما بالي؟ كثيراً ما أشعر بشيء من الخوف من نفسي، ولكن ليس طويلًا. لا، لا، أنا أثق بنفسي. ولكن أليس هذا غريبًا حقًا؟

فيما يخص زميلي التلميذ فوكس لدي تعبير لغوي وحيد فقط لا غير: فوكس مائل، فوكس معوج. إنه يتكلم مثل محاولة شقلبة فاشلة، ويتصرف مثل حالة عدم احتمال كبيرة، معجونة جيدًا لتتخذ شكل إنسان. كله على بعضه سمج، وبالتالي لا يستحق المراعاة. ومحاولة معرفة شيء ما عنه تُعد انتهاكًا، وشططًا مزعجًا غير مؤدب. مثل هؤلاء الأشقياء يتعرفهم المرء ليحتقرهم وحسب؛ ولكن بما أن المرء لا يرغب مطلقًا في أن يعثر على شيء يستحق الاحتقار، فإنه ينساه أو يتجاهله. شيء، نعم، هذا هو. يا ربي، أيجب عليّ اليوم أن أسيء الكلام؟ أكاد أكره نفسي بسبب هذا. فلأبتعد إلى ما هو أجمل. – نادرًا جدًا ما أرى السيد بنيامنتا. أدخل أحيانًا إلى مكتبه، أنحني حتى الأرض وأقول: «طاب نهارك، حضرة الناظر»، وأسأل ما يشبه السيد الآمر، السماح لي بالخروج. فيسألني: «هل كتبت موجز سيرة حياتك؟»، فأجيب: «ليس بعد، لكني سأفعل». فيقترب السيد بنيامنتا مني، أي من حاجز النُضد الذي أقف عنده، يرفع قبضة يده الكبيرة أمام أنفي ويقول: «ستعود في الوقت المحدد يا فتى، وإلا -- -- أنت تعرف ما يترتب على ذلك». – أفهم ما يعني، أنحني ثانية وأنسحب. غريب كم يلذّني استفزاز ممارسي السلطة حتى بلوغ سَورة الغضب. فهل أتوق يا تُرى إلى عقوبة ضرب من قبل هذا السيد بنيامنتا؟ هل تسكنني غرائز غير محتشمة؟ كل شيء، كل شيء

ممكن، حتى الأشد دناءة وعدم لياقة. حسنًا، عما قريب سأكتب السيرة الذاتية. أنا في الواقع أجد السيد بنيامنتا جميلًا. لحية بنية رائعة – ماذا؟ لحية بنية رائعة؟ أنا غبي. لا، لا يوجد في السيد الناظر ما هو جميل ولا ما هو رائع، لكن المرء يحدس بأن وراء هذا الإنسان تكمن تدخلات قدَرٍ فاعلة وضربات قدَر قوية، وهذا العنصر الإنساني، الذي يقارب الإلهي، هو ما يجعله جميلًا. أما الرجل ذو اللحية البنية الجميلة حقًا، فهو إما مغني في الأوبرا أو رئيس قسم براتب باذخ في أحد المتاجر الكبيرة. رجال المظهر يكونون عادة جميلين. ولكن في كل الأحوال هناك استثناءات، إذ ثمة رجال جميلون مترعون بالكفاءة. وجه السيد بنيامنتا ويده (التي سبق أن أحسست بها) يشبهان جذورًا كثيرة العقد، أو جذورًا اضطُرَت في ساعة حزينة لمقاومة ضربات فأس لا رحمة فيها. لو كنتُ سيدة ذات نسبٍ نبيل وثقافة، لعرفت بالتأكيد كيف أمنح الأوسمة لرجال مثل ناظر المعهد هذا، الذي يبدو ظاهريًا أنه بائس، لكني أظن أن السيد بنيامنتا لا يخالط المجتمع الذي يمثل العالم. إنه في واقع الأمر يبقى دائمًا في البيت، يمكث بلا شك في نوع من المخبأ، يتوارى «في العزلة»، ولابد أن هذا الرجل الأصيل والذكي يمضي حياته الرتيبة في وحدة مخيفة. لا شك في أن أحداثًا ما قد خلفت وراءها في هذه الشخصية تأثيراً عميقًا، بل يحتمل أن يكون مدمرًا، ولكن ما الذي يعرفه المرء؟ ماذا يمكن لمتدرب في معهد بنيامنتا أن يعرف؟ إلا أني أنا على الأقل أتحرى دائماً. وبغية التحري، لا لأي هدف آخر، أدخل غالبًا إلى مكتبه وأوجه إليه أسئلة تافهة، مثل: «أتأذن لي بالخروج حضرة الناظر؟». نعم، هذا الإنسان أثار إعجابي، أمره بات يهمني. والمعلمة أيضًا تسترعي كبير اهتمامي. نعم، ولهذا السبب، كي أستخلص شيئًا من كل هذه السرية والغموض، فإني أستفزه، كي تفلت منه ملاحظة طائشة. ما الضرر الذي سيلحق بي إذا ضربني؟ إن رغبتي بالاختبار تنمو لتصبح هوى طاغيًا، والألم الذي يسببه لي سخط هذا الرجل العجيب، يعد ضئيلًا مقارنة بالرغبة العارمة في أن أستدرجه، ليبوح أمامي قليلًا. آه كم أحلم، -- رائع، رائع، -- -- أن أمتلك ثقة هذا الرجل لحظة انفلاتها. حسنًا، سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكني أعتقد، نعم أنا أعتقد بأني سأنجح في نهاية المطاف في اختراق سر آل بنيامنتا. الأسرار تجعل المرء يتكهن

بسحر بالغ التأثير، إنها تعبق بشيء في منتهى الجمال، بروعة لا توصف. من يدري، من يدري. آه -- --.

أنا أحب ضجيج المدينة الكبيرة والحركة الدائبة فيها. إن ما يستمر بلا انقطاع يجبرِ على التمسك بالأخلاق. فاللص مثلًا، عندما يرى كل هؤلاء الناس النشيطين، لابد وأن يفكر لاإراديًا بمدى نذالته، والمشهد المتحرك بمرح قد يستدعي تحسنًا في كيانه المتساقط مثل أنقاض. والفشّار قد يتواضع قليلًا ويفكر أكثر عندما يبصر كل هذه الطاقات وهي تنتج، والبذيء قد يقول في نفسه عندما يرى تأقلم الكثيرين وطواعيتهم، إنه وغد حقير ليتوج نفسه على عرش الادعاء بكل غباء وغرور. المدينة الكبيرة تربي وتعلم، وفي واقع الأمر عن طريق الأمثلة، وليس بجملٍ وعظية جافة مأخوذة من الكتب. ليس في الأمر أي أستَذَة، وهذا يشجِع، لأن وقار العلم المتراكم للأستاذ يثبِط العزيمة. كما يتوافر هنا كثير من الأمور، التي تشجع وتحفظ وتساعد. يكاد المرء لا يستطيع الكلام، بسبب صعوبة إيجاد التعبير المناسب لما هو راق وخيرٌ. إن المرء هنا ممنون حتى للحياة المتواضعة، ويعبر دائمًا عن امتنانه ولو قليلًا، لأن هذا يدفع المرء، فيصير على عجلة من أمره. فمن يهدر الوقت لا يعرف قيمته، فهو بالتالي ناكر الجميل الطبيعي الغبي. إن أي مراسل في المدينة الكبيرة يعي أن للوقت قيمة ما، وكل بائع جرائد لا يريد لوقته أن يضيع. ثم هناك ما هو خيالي، بديع، وشاعري! الناس يسرعون ويعملون متجاوزين الآخر دائمًا، وهذا له أهميته، فهو يحفِّز، ويجعل الفكر يتحرك بحيوية أكبر. وفيما يقف المرء مترددًا، يكون مئات من مختلف أنواع البشر قد عبروا أمام رأسه وناظريه، وهذا يبرهن للنفس بكل وضوح، على مدى كونه مقصرًا ومؤجِّلًا خاملًا. الناس هنا بصورة عامة مستعجلون، لأن المرء يعتقد في كل لحظة، أن من الجميل الخروج لكسب شيء أو لانتزاعه. فتكتسب الحياة نفَسًا أشد إثارة. الجروح والآلام تزداد عمقًا، والفرح يبشر ببهجة أكبر وأطول من مكان آخر، لأن مَن يفرح هنا، يبدو أنه يكسبه دائمًا من خلال العمل الشاق والكد. عندها تعود الحدائق، التي كانت ضائعة خلف قضبان أسوارها الأنيقة، لتنبسط مثل زوايا خافية في مناظر الحدائق الطبيعية الإنجليزية. وعلى مقربة منها مباشرة تهدر وتضج حركة المرور

المرتبطة بالأعمال، وكأن المناظر الطبيعية أو الأحلام لم تكن موجودة في الحياة أبدًا. القطارات ترعد فوق الجسور المرتجفة. مساء تتلألأ كما في الحكايات الواجهات الثرية والأنيقة، وتيارات وأرتال وموجات من الناس تتبدل أمام معروضات الثراء الصناعي المغري وتتابع دروبها. نعم، هذا كله يبدو لي جيدًا وعظيمًا. فالمرء يربح بوجوده في خضم الدوامة والتيار المتدفق. وينتابه إحساس جميل على ساقيه وذراعيه وفي صدره، ببذله جهدًا ليتمكن بلياقة من التسلل والانسياب بين هذه الكتلة الحيوية من دون عناء. في الصباح يبدو أن كل شيء تدب فيه الحياة من جديد، وفي المساء يغرق كل شيء مجددًا في أحلام يقظة لم يسبق أن أحس بمثلها في جموح تشابك الأذرع. هذا بالغ الشاعرية. ولو اطلعت الآنسة بنيامنتا على ما أكتبه هنا، لزجرتني بشدة. ناهيك عن كراوس، الذي لا يجد فارقًا يستدعي التحمس له بين القرية والمدينة. إن أول ما يراه كراوس هم الناس ثم الواجبات وفي المرتبة الثالثة تأتي المدخرات التي يجمعها، حسب تفكيره، كي يرسلها لأمه. وهو يكتب دائمًا لأهله. إنه يتصف بتربية بسيطة وإنسانية في الوقت نفسه. أما حركة المدينة الكبيرة وصخبها بكل ما فيها من وعود كثيرة سخيفة وبراقة، فإنها لا تحرك فيه شيئًا إطلاقًا. يا له من إنسان بروح ثابتة حنون وصالحة.

أخيراً صارت صوري الفوتوغرافية جاهزة. وفي هذه الصور الناجحة حقًا بشكل جيد، أبدو أني أنظر إلى الدنيا بكل قوة وحيوية. يريد كراوس أن يزعجني فيقول إني أبدو فيها مثل يهودي. وأخيراً، أخيراً ضحك ضحكة خفيفة. فقلت له: «كراوس، أرجو أن تراعي أن اليهود بشر أيضًا». فتلاسَنّا حول قيمة ولا قيمة اليهود وتسلينا بذلك كثيراً، واستغربتُ جودة آرائه. «اليهود يملكون كل المال»، قال. أومأت برأسي موافقًا وعلقت: «المال يجعل الناس يهودًا. فاليهودي الفقير ليس يهودياً، وأثرياء المسيحيين هم أسوأ اليهود». – فأومأ برأسه. أخيراً، أخيراً يتفق هذا الإنسان معي في الرأي. لكن الانزعاج يعاوده فيقول بكل جدية: « لا تهذر دائماً. ما قصدك من الكلام عن اليهود والمسيحيين. هذا غير صحيح إطلاقًا. هناك أناس فاسقون وأناس صالحون. هذا هو الموضوع. وما رأيك يا ياكوب، إلى أي صنف تنتمي أنت؟» – ثم بدأ بيننا حوار طويل. وكراوس يحب

جدًا أن يحاورني، أعرف ذلك. هذه الروح الطيبة الرفيعة. سوى أنه لا يحب أن يعترف. وكم أحب أنا أولئك الذين لا يحبون الاعترافات. كراوس يمتلك شخصية: يحس المرء بذلك بعمق. -لقد كتبت سيرة حياتي على كل حال، لكني مزقتها ثانية. بالأمس نبهتني الآنسة بنيامنتا إلى ضرورة أن أكون أكثر يقظة وطاعة. لدي أجمل التصورات عن الطاعة واليقظة، والمستغرب: أنها تفلت مني. أنا فاضل في التصور، ولكن عندما يتعلق الأمر بممارسة الفضائل ماذا يحدث؟ أليس كذلك، نعم، عندئذ يكون الوضع مختلفًا كليًا، عندئذ يتخاذل المرء، ويكون ممتعضًا. أنا بالمناسبة وقح، وأهيم جدًا بالفروسية والتهذيب، ولكن عندما يجب استباق المعلمة وفتح الباب لها بكل احترام، فمن هو الجلف عندئذ، الذي يبقى جالسًا إلى الطاولة؟ ومن الذي يقفز كريح العاصفة، ليُبدي تهذيبه؟ طبعًا كراوس، فهو فارس من رأسه إلى قدميه. إنه ينتمي في واقع الأمر إلى العصر الوسيط، ومن المؤسف عدم توفر قرن ثاني عشر حاليًا. إنه الإخلاص والتفاني في الخدمة وروح التعاون الإيثاري مجسدة في شخص. ليس لديه أحكام قيمة بشأن النساء، بل هو يحترمهن جميعهن وحسب. مَن الذي يرفع ما سقط عن الأرض ويناوله للآنسة بسرعة وحيد القرن؟ مَن الذي يقفز إلى خارج المعهد لاستلام الطلبيات؟ مَن الذي يحمل سلة تسوق المعلمة؟ مَن الذي ينظف الدَرج والمطبخ دون أن يأمره أحد بذلك؟ مَن الذي يقوم بكل هذا دون توقع الشكر؟ مَن الممتلئ بفرح داخلي على نحو رائع؟ ما اسمه؟ آه، إني أعرفه. تنتابني رغبة أحيانًا في أن يضربني كراوس هذا. ولكن كيف لِمَن كان مثله أن يقدر على الضرب. إنه لا يطلب إلا الصلاح والخير. وليس في قولي أي مبالغة إطلاقًا. ليس لديه نوايا سيئة أبدًا. عيناه تطفحان طيبة بصورة مرعبة. ماذا يبغي هذا الإنسان فعليًا، في عالم مؤسس على الكلام الأجوف والكذب والغرور وتكيَّف معها؟ إذا تأمل المرء كراوس مليًا، فسيشعر لاإراديًا بضياع التواضع في الدنيا مع عدم القدرة على إنقاذه.

لقد بعت ساعتي لأتمكن من شراء تبغ سجائر. أستطيع العيش دون ساعة، ولكن ليس دون تبغ، هذا شائن، لكنه قاهر. لابد لي من الحصول على قليل من النقود، وإلا ستنقصني قريبًا الغيارات الداخلية النظيفة. كما أحتاج إلى ياقات قمصان

نظيفة. إن سعادة الإنسان لا تتعلق بمثل هذه الأمور، ولكنها رغم ذلك تتعلق بها. سعادة؟ لا. ولكن يُفترض بالإنسان أن يكون محترمًا. النظافة وحدها سعادة. إني أهذر. كم أكره كل هذه الأقوال السديدة.

اليوم بكت الآنسة. لماذا؟ في منتصف الحصة انهمرت دموعها فجأة. وقد أثّر فيّ هذا على نحو غريب. في كل الأحوال سأبقي عينيَّ يقظتين. يسليني أن أنصت إلى ما لا يُصدِر صوتًا، فأتنبه، وهذا يُجمِّل الحياة، فمن دون ضرورة التنبه لا توجد حياة. الواضح أن الآنسة بنيامنتا تعاني كربًا ما، ولابد أنه كرب كبير، لأن معلمتنا تعرف عادة كيف تسيطر على نفسها بشكل جيد جدًا. لابد لي من الحصول على بعض المال. وبالمناسبة، لقد انتهيت من كتابة سيرتي الذاتية. وهي كما يلي:

سيرة ذاتية

أنا الموقع أدناه، ياكوب فون غونتن، ابن والدين صالحين، ولدتُ في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا، مسقط رأسي ومكان نشأتي في كذا، انتسبت متدربًا إلى معهد بنيامنتا، لأحصل على المعارف الضرورية والمؤهِلة للالتحاق بخدمة سيد ما. وأنا شخصيًا ليست لدي أية آمال من الحياة. أرغب في أن أعامَل بحزم، كي أختبر معنى أن يشد المرء عزيمته. ياكوب فون غونتن لا يَعد بالكثير، لكنه ينوي أن يسلك على نحو مهذب ومستقيم.

إن آل فون غونتن سلالة قديمة، كان رجالها قديمًا محاربين، لكن الرغبة في القتال تراجعت لديهم، وهم الآن ممثلون في مجلس المحافظة وتجار، وأصغرهم سنًا، موضوع هذا التقرير، حسمَ أمره وقرر التخلي كليًا عن التقاليد المتعجرفة، ويريد من الحياة أن تعلمه، وليس مبادئ النبلاء المتوارثة. لكنه فخور بها، إذْ من المستحيل عليه إنكار طبيعته المتأصلة، غير أنه يفهم من كلمة فخر معنى جديدًا كليًا، متلائمًا مع الزمن الذي يعيشه. إنه يأمل أن يكون معاصرًا، ماهرًا في أداء الخدمات، وليس غبيًا وعديم الفائدة، إلا أنه يكذب، وهو لا يظن ذلك وحسب، بل يزعم ذلك ويعرفه جيدًا. إنه عنيد الرأس، ومازالت تسكنه إلى حد ما أرواح أسلافه المنفلتة، لكنه يرجو أن يُنبَّه عندما

يعانِد، وإنْ لم ينفع التنبيه، فالترويض، فهو باعتقاده سينفع. فيما عدا ذلك سيعرف المرء كيف عليه أن يتعامل معه. ويعتقد الموقع أدناه أنه قادر على السلوك وفقًا لما يليق بكل حالة، ولذلك سيَّان بالنسبة إليه، نوع الأوامر التي ستوجه إليه، لأنه على قناعة تامة، بأن كل عملٍ ينجزه بعناية، سيشرِّفه أكثر من الجلوس وراء الموقد في الدار متبطلًا ومتوخيًا الحذر. ومن ينتمي إلى سلالة فون غوتن لا يجلس وراء الموقد. إذا كان الأسلاف الذين وقَّعوا ميثاق الطاعة قد حملوا سيف الفرسان، فإن السلف يسلك وفق تقاليده عندما يتحرّق رغبةً إلى أن يثبت بطريقة ما كونه مفيدًا. إن تواضعه لا يعرف حدودًا، إذا دارى المرء طاقته، كما أن توقه لتقديم الخدمة يماثل طموحه، الذي يأمره بأن يزدري أحاسيس الشرف المعيقة والضارة. في موطنه قام الموقع أدناه بضرب أستاذ التاريخ السيد الدكتور مِرْتس الموقر، وهي فعلة مشينة يندم عليها. إنه يتوق اليوم إلى أن يحطم بلا هوادة على صخرة العمل الشاق، مشاعر التكبر والعجرفة، التي ربما لا زالت تسكن روحه جزئيًا. إنه قليل الكلام ولن يفشي مطلقًا ما باح له به آخرون من أسرارهم. كما أنه لا يؤمن بالجنة ولا بالجحيم، لكن رضا مَن سيشغله عنده سيكون جنته، ونقيضه المحزن سيكون جحيمه المدمِّر، غير أنه مؤمن بأن المرء سيكون راضيًا عنه وعما سينجزه. وهذا الإيمان الراسخ يمنحه الشجاعة لأن يكون كما هو عليه.

ياكوب فون غوتن.

قدمت موجز سيرة حياتي للسيد الناظر. قرأه كله، أظن، بل مرتين، وبدا أن المادة قد أعجبته، فقد تراءى على شفتيه وميض ابتسامة. بل بالتأكيد، فقد راقبت رجُلي بدقة كبيرة. لقد ابتسم قليلًا، هذه حقيقة وستبقى كذلك. إذن أخيراً حصلت على دلالة إنسانية. كم مرة على المرء أن يقفز، كي يجعل أناسًا، بودِّه أن يقبل أيديهم، يعبرِّون ولو بنأمة عن إحساس ودود. بكل قصدٍ ومتعمدًا صغت سيرة حياتي بهذا الفخر والوقاحة: «هاكَ اقرأها. كيف وجدتها؟ ألا تستفزك لأن ترميها في وجهي؟» – هكذا كانت أفكاري. فإذا به يبتسم بكل مكر ولطف، هذا السيد الناظر الماكر واللطيف، الذي للأسف، للأسف الشديد، أكنّ له كل

الاحترام. وقد لاحظت الابتسامة. أي أني كسبت معركة موقعٍ أمامي. يجب عليّ اليوم حتمًا أن أدبر مقلبًا ما، يجب أن أنفجر سرورًا، أن أنفجر ضحكًا. لكن هل الآنسة - الناظر تبكي؟ ما هذا؟ ما سبب سعادتي الغريبة؟ هل أنا مجنون؟

عليَّ الآن أن أحكي عن موضوع، قد يثير بعض الشكوك. وعلى الرغم من ذلك فإن ما سأقوله حقيقي لاريب. في هذه المدينة الكبيرة جدًا يعيش أخ لي، وهو أخي الوحيد، أعتبره بنظري إنسانًا متميزًا، اسمه يوهان، وهو كما يقال فنان معروف ومشهور. لا أعرف شيئًا محددًا عن مكانته الحالية في العالم، وذلك لأني تجنبت أن أزوره. ولن أذهب لزيارته. ولكن إذا تقابلنا صدفة في الطريق وتعرَّف عليّ فاقترب مني: عندئذ سيسرني أن أصافح يده الأخوية بقوة. لكنني لن أعمل مطلقًا على افتعال مثل هذا اللقاء، طوال حياتي. فمن أكون أنا، ومَن هو؟ أنا أعرف ما يساوي المتدرب في معهد بنيامنتا، فالأمر واضح. مثل هذا المتدرب يساوي صفرًا مُكوَّرًا، لا أكثر. ولكن ليس بمقدوري أن أعرف مكانة أخي في هذه الساعة. ربما كان محاطًا بأناس مثقفين راقين، والله يعلم في أي جو من الشكليات، وأنا أحترم الشكليات، ولهذا فأنا لا أبحث عن أخ قد يظهر أمامي كسيد راق بابتسامة مرسومة. أنا أعرف يوهان فون غوتن من الأيام الخوالي، وهو طبعًا رجل يزن الأمور ويحسبها ببرود مثلي ومثل جميع آل غوتن، لكنه يكبرني بسنوات كثيرة، وفي فارق السن بين إنسانين وأخوين قد توجد حدود يصعب تجاوزها. في كل الأحوال أنا لن أتقبل منه مواعظ طيبة، وهذا بالتحديد هو ما أخشى أن يفعله عندما نتقابل. فإذا رآني أمامه فقيراً وبلا أهمية، فسيميل بالتأكيد، وهو الميسور، إلى أن يُشعرني من عليائه بوضاعة حالي، الأمر الذي لن يمكنني تحمله، وعندئذ سأستعيد كبرياء آل فون غوتن وسألجأ بالتأكيد إلى الجلافة، الأمر الذي سيؤلمني حتمًا فيما بعد. لا، وألف لا. ماذا؟ هل سأتقبل مِنّة من أخي، من دمي نفسه؟ آسف جدًا، لكن هذا مستحيل. إني أتخيله راقيًا جدًا، يدخن أفضل السجائر في العالم، ويضطجع على وسائد وسجاد الرفاه البرجوازي. وكيف؟ نعم، ثمة في داخلي الآن شيء مناهض للبرجوازية، شيء فاضل - معارض لها تمامًا، وقد يرتاح السيد أخي في خضمه، وسط أجمل وأبهى أخلاق في العالم. الأمر محسوم: نحن الاثنان لن نلتقي، وربما أبدًا! وما من

ضرورة لذلك إطلاقًا. غير ضروري؟ طيب، لنترك الموضوع. يا لي من أبله، ها أنا أتكلم عن نفسي بصيغة الجمع، مثل طاقم أساتذة محترمين. – من المؤكد أن أخي محاط من حوله بأرقى سلوكِ صالونات. مِرْسي. العفو، أشكرك. سيكون هناك نساء، يمددن رؤوسهن من الباب ويسألن بفظاظة: «مَن هذا القادم الآن؟ من؟ أيكون شحاذًا ربما؟» – كم أنا ممنون لمثل هذا الاستقبال. إني أفيض طيبة فلا يجوز أن أكون موضع شفقة. ثمة ورود فواحة في الغرفة! أنا لا أحب الورود أبدًا. وجوهر الدنيا مطلق العنان؟–. هذا فظيع. نعم، بكل سرور، سأراه بسرور. ولكني عندما أراه هكذا، فإني أرى ألقًا وارتياحًا: ذهب الإحساس سدى، إني أرى هنا أخًا، وسيحق لي أن أتظاهر زاعمًا السرور، وهو كذلك. إذن لا.

في أثناء الحصة الدرسية نجلس نحن التلاميذ ناظرين أمامنا بجمود، دون أدنى حركة. أعتقد أنه لا يحق لأحدنا حتى أن ينف أنفه. اليدان مرتاحتين على الركبتين وغير مرئيتين طوال الدرس. اليد هي الدليل الخماسي الأصابع على الغرور الإنساني والشهوانية، ولهذا تبقيان مخبأتين تحت الطاولة. وأنوف التلاميذ تتصف بأكبر تشابه فكري أحدها بالآخر، وتبدو جميعها إلى هذا الحد أو ذاك طامحة إلى العلا، حيث يتهادى إدراك اضطرابات الحياة بجلاء. يُفترض بأنوف التلاميذ أن تبدو مُصمتة وخاملة، هكذا تطالب التعليمات، التي تفكر بكل شيء، وفي واقع الأمر فإن جميع أدوات تشممنا منحنية بخضوع واستحياء، وكأنها مبتورة بسكاكين حادة. عيوننا تنظر دائمًا في الفراغ المليء بالأفكار، وهذا أيضًا مما تنص عليه التعليمات. في واقع الأمر لا يُفترض بالمرء أن تكون له عينان، لأن العيون وقحة وفضولية، والوقاحة والفضول تعدّان من كل وجهة نظر سليمة تقريبًا تستحقان اللعن. أما آذاننا نحن التلاميذ فهي مسلية جدًا، إذ أنها من شدة الإصغاء لا تجرؤ على سماع الجميع، إنها ترتعد قليلًا دائمًا، وكأنها تخشى مَن يجذبها فجأة من الخلف لائمًا، ويشدها بعنف بالطول والعرض. مسكينة هاته الآذان، التي عليها أن تتعرض إلى مثل هذا الخوف. وعندما يصطدم صوت نداء أو أمرٍ بهذه الآذان، فإنها تتذبذب وترتجف مثل القيثارة إذا اصطدم أو لمس شيء أوتارها. حسنًا، قد يحدث أيضًا أن تنام آذان التلاميذ قليلًا وبكل سرور، ولكن كيف توقَظ من ثم! يا للفرح عند ذلك. إلا أن أشدّ ما فينا ترويضًا هو

الفم، فهو مطيع دائمًا ومغلق بخضوع. فالحقيقة الجلية تدل على أن الفم المفتوح هو الدلالة المتثائبة على أن صاحبه متواجد بأفكاره القليلة في مكان آخر غير حقل الانتباه وحديقته. في حين أن الفم المقفل بحزم يدل على أذنين مُشرعتين ومتنبهتين، ولهذا لابد من إبقاء الأبواب هناك تحت، تحت نوافذ الأنوف مقفلة بالمزلاج. الفم المفتوح هو فاه مُتفَوهٌ ليس إلا، وكل منا يعرف ذلك. والشفتان لا يجوز أن تزهوا وتفْجرا بالشهوانية كما في حالة الراحة الطبيعية، بل يجب أن تُطويا وتُزمّا دلالة على شدة الزهد وعدم توقع شيء. وهذا هو ما نفعله جميعنا، أي أننا وفق التعليمات السارية نتعامل مع شفاهنا بقسوة شنيعة، فنبدو لذلك ساخطين مثل رقيبٍ آمِر. من المعروف عن صف الضابط أنه يريد لسَحْنة جنوده أن تبدو عابسة مثل سحنته، فهذا يلائمه، لأنه يمتلك حسًا بالفكاهة عادة. بعيدًا عن المزاح: إن الذين يطيعون الأوامر يبدون غالبًا مثل الذين يُصدرونها. والخادم ليس بوسعه سوى لبس قناع سيده ومظاهر سلوكه، كي يقوم بدوره بمتابعة غرسها بنفس الطريقة بإخلاص. وآنستنا المحترمة هي حتمًا ليست رقيبًا من هذا النوع، بل بالعكس، فهي تضحك غالبًا، وتسمح لنفسها ببساطة أحيانًا أن تهزأ بنا نحن المراميط المطيعين للتعليمات، إلا أنها تتوقع منا أن ندعها تضحك ولكن من دون أن نغيّر سحناتنا، ونحن نفعل ذلك، بأن نتظاهر بأننا لم نسمع أبدًا صوت ضحكتها الفضي الحلو. يا لنا من طيور بوم عجيبة. شعرنا نظيف دائمًا ومسرَّح بالفرشاة على نحو أملس، وقد اختار كل منا لنفسه مفرقًا مستقيمًا ليمده في العالم، فوق على الرأس، مثل قناة عبر الشعر -التربة السوداء أو الشقراء. هكذا يجب أن يكون، حتى مفرق الشعر حسب التعليمات. ولهذا، بما أننا مسرّحون بأناقة على جانبي المفرق، بتنا في واقع الأمر متشابهين جميعنا، الأمر الذي سيكون مميتًا من الضحك مثلًا، إذا زارنا كاتب بهدف أن يدرُسَنا من حيث روعة مظهرنا وضآلة قيمتنا. يُفَضَّل أن يبقى هذا الكاتب في بيته. فهؤلاء الذين يريدون أن يدرسوا ويرسموا ويراكموا الملاحظات وحسب، ليسوا سوى أدعياء متبجحين. إذ على المرء أن يعيش، ومن ثم تتراكم الملاحظات من نفسها. وبالمناسبة، آنستنا بنيامنتا في حال قدوم أحد كتاب المقالات مزهوا بنفسه إلينا، فإنها ستخاطبه بفظاظة، بحيث سيسقط على

مؤخرته من عدوانية الاستقبال. ومن ثم قد تقول لنا المعلمة، التي تحب التصرف بتجبر: «اذهبوا وساعدوا الأستاذ في النهوض عن الأرض». ثم سنقوم نحن تلاميذ معهد بنيامنتا باقتياد الزائر غير المرغوب فيه إلى الباب. وعندها سيغادرنا شقفة الكاتِب الفضولي. لا، هذه محض تخيلات. فالسادة الذين يأتون إلينا، يريدون أن يُشغلِّوا الفتيان عندهم، وليسوا أناسًا بأقلام وراء آذانهم.

إما أن معلمي معهدنا غير موجودين أساسًا، أو أنهم لا يزالون نائمين، أو يبدو أنهم قد نسوا مهنتهم. وهل يمكن أنهم أعلنوا الإضراب عن العمل، لأن رواتبهم الشهرية لم تُدفع لهم؟ تنتابني مشاعر غريبة عندما أفكر بالمستغرقين في النوم والسارحين في أفكارهم. فهم إما جالسون أو متكوِّرون عند جدران الغرفة الإضافية التي تم ترتيبها خاصة للمحتاجين إلى الراحة. هناك السيد قُكْلي، معلم تاريخ الطبيعة المزعوم. حتى في نومه ما زال معلقًا الغليون في فمه. يا للأسف، كان الأفضل له لو صار مربي نحل. ما أشد احمرار رأسه وما أسمن يده الطرية العجوز. وهنا إلى جانبه، أليس هذا هو السيد بلوش، معلم اللغة الفرنسية المحترم؟ نعم، إنه هو، حقًا هو، كما أنه يكذب بتظاهره بالنوم، إنه كذاب أشر. وحصص دروسه أيضاً ليست سوى كذبة دائمة، ولم تكن إلا قناعًا ورقيًّا. كم يبدو شاحبًا وشريرًا! له وجه رديء، بشفتين سمينتين قاسيتين وقسمات قاسية لا رحمة فيها: «هل أنت نائم يا بلوش؟» – لا يسمع. إنه في الواقع شخص مقيت. وهذا، مَن يكون هذا؟ الكاهن شتريكر؟ الكاهن الطويل والنحيل، الذي يعطي درس الديانة؟ يا للشيطان، إنه هو بنفسه. «هل أنت نائم سيدي الكاهن؟ حسنًا، ابق نائمًا إذن. لا ضرر في استمرارك نائماً. فأنت تضيّع الوقت وحسب بإعطائك دروس الديانة. الدين، كما ترى، لم يعد يصلح لشيء اليوم، والنوم أشد تدينًا من دينك كله. عندما ينام المرء، يكون لربما أقرب ما يمكن إلى الرب. ما رأيك؟» – إنه لا يسمع. سأجرب في زاوية أخرى. مَن هذا الذي يختار وضعية مريحة هنا؟ أهو مِرْتس، الدكتور مرتس، الذي يدرس تاريخ روما؟ نعم، إنه هو، إني أتعرفه من سكسوكته. «تبدو مستاءً مني يا دكتور مرتس. حسنًا، تابع نومك وانسَ المشاهد غير اللائقة، التي جرت بينك وبيني، لا توجه غضبك إلى سكسوكتك. بالمناسبة، تفعل خيراً بنومك. فالعالم منذ بعض الوقت

يدور حول المال، وليس حول التاريخ. وجميع فضائل الأبطال العتيقة جدًا، التي تسهب في الحديث عنها، لم تعد تلعب، كما بتَّ تعرف على الأغلب، أي دور منذ مدة طويلة. أنا شاكر لك بعض الانطباعات الجميلة. أرجو لك نومًا هانئًا». – أما هنا فقد استقر على ما يبدو السيد فون بِرْغِن، معذب الفتيان فون برغن. يتظاهر بأنه يحلم وهو يوزع بكل سرور «لطمات» تدغدغ أصواتها ولعه السماوي بالضرب. أو يأمر «بحني الجذع والمشي إلى الأمام»، ويتلذذ من ثم برَقْع مؤخرة الفتى المسكين بالعصا. إنه يتصف بأناقة باريسية، لكنه متوحش. – ومَن يكون هذا هنا؟ نائب مدير المدرسة المتوسطة السيد ڤـيس؟ لطيف جدًا. لا حاجة للوقوف طويلًا عند أناس منصفين. ومَن لدينا هنا؟ بور؟ المعلم بور؟ «أنا مبتهج لرؤيتك». بور كان أذكى معلمي الحساب في القارة. وهو بالنسبة إلى معهد بنيامنتا حر التفكير أكثر من اللازم وواسع الأفق جدًا، ممتاز أكثر مما هو مألوف واستحقاقاته أعلى من الضروري. هنا في المعهد لا تتوفر شروط تلفت النظر. ولكن هل أحلم على ما يبدو بأساتذتي في مسقط رأسي؟ في المدرسة المتوسطة هناك يحصل التلميذ على كمياتٍ واسعة من المعارف، أما هنا فالوضع مختلف تماماً. هنا يحصل التلاميذ على شيء مغاير كليًا.

هل سأحصل قريبًا على مكان عمل؟ آمل ذلك. صوري وكتاب الترشيح يشكلون معًا في تصوري انطباعًا مناسبًا. مؤخرًا دخلت مع شيلينسكي إلى أحد أوائل المقاهي الموسيقية. كم كان شيلينسكي يرتجف بكل جسمه من الخجل، وأنا تصرفت وكأني تقريبًا والده المحِب. بعد أن رازَنا النادل بنظره من تحت لفوق، أقدم على السماح لنا بالجلوس؛ وبعد أن رجوته بتعبير وجه صريح أن يتكرم ويخدمنا، أصبح لطيفًا فورًا وأحضر لنا بيرة في كأسين طويلين مصقولين برقة. لابد للمرء من أن يمْثِل، ومَن يتقن الظهور باللياقة الضرورية، فسيعامَل كسيد. على المرء تعلم السيطرة على الأوضاع. أنا أحسِن بشكل ممتاز رمي رأسي إلى الوراء، وكأني منزعج من أمر ما، لا، بل مندهش من أمر ما فقط. فأنظر حولي وكأني أردت أن أقول: «ما هذا؟ كيف؟ هل جن الناس هنا؟» – ويكون لهذا مفعوله. وفي معهد بنيامنتا، الحمد لله، شكلت لنفسي مكانة خاصة. أشعر أحيانًا بأني أمتلك القوة لأن ألعب بالدنيا وما فيها كما أشاء. فأفهم دفعة واحدة

جوهر النساء اللطيف. إن غنجهن يسليني، وأرى معنى عميقًا في حركاتهن البسيطة وأقوالهن. إذا لم يفهم المرء المرأة عندما ترفع الفنجان إلى فمها، أو وهي ترفع تنورتها، فإنه لن يفهمها أبداً. إن أرواحهن تتعثر بالكعوب العالية لأحذيتهن الفاتنة، ولابتساماتهن وجهان: عادة ساذجة وقطعة من تاريخ العالم. وأجد تعاليهن وقصور عقولهن مثيراً، أكثر إثارة من أعمال الكلاسيكيين. أحيانًا تكون رذائلهن أكثر الأفعال عفة تحت الشمس، ولاسيما عندما يثرن ويغضبن. النساء فقط يعرفن كيف يغضبن. ولكن بهدوء. تخطر ماما في بالي. ما أقدس ذكرى لحظات غضبها عندي. ولكن بهدوء، بصمت. ماذا يعرف تلميذ في معهد بنيامنتا عن كل هذه الأمور؟

لم أتمكن من ضبط نفسي، فدخلت إلى مكتب الناظر، أديت التحية حسب العادة بانحناءة عميقة وقلت للسيد بنيامنتا ما يلي: «أنا أملك ذراعين وساقين ويدين يا سيد بنيامنتا، وأرغب في أن أشتغل، ولذلك اسمح لي أن أرجوك، أن تؤمِّن لي في القريب العاجل عملاً ودخلاً ماليًا. إذ لديك علاقات بالغة التنوع، أنا أعرف هذا. يأتيك أناس من عليّة القوم، أناس يحملون أكاليل على قلبات معاطفهم، وضباط يصلصلون بسيوفهم الباترة، وسيدات تُصدر ذيول أثوابهن على الأرض حفيفًا مثل بقبقة مويجات، وعجائز ذوات ثروات ضخمة، وشيوخ يدفعون مليونًا لقاء نصف ابتسامة، أناس ذوو حسب ونسب ولكن بلا فكر، أناس يأتون بسياراتهم، وباختصار يا حضرة الناظر، العالم يأتي إليك». – فقال لي محذرًا: «إياك أن تتواقح»، ولم أعرف لماذا لم أشعر بأي خوف من قبضتيه، فتابعت كلامي والكلمات تطير من فمي: «لابد من أن تُؤمِّن لي شغلاً مُحفِزاً. وبالمناسبة، أنا أرى أن أي شغل يعتبر محفزاً. لقد تعلمت الكثير عندكم يا حضرة الناظر». فرد بهدوء: «أنت لم تتعلم أي شيء بعد». فالتقطتُ الخيط ثانية وأجبته: «الرب نفسه يأمرني بالخروج إلى الحياة العملية. ولكن مَن هو الرب؟ أنت ربي يا حضرة الناظر، إذا سمحت لي بالخروج لكسب المال والاحترام». – صمتَ برهة ثم قال: «عليك الآن أن تخرج من المكتب فوراً». – أزعجني هذا جدًا، فرفعت صوتي قائلًا: «إني أرى فيك إنسانًا رائعًا، لكنني مخطئ، أنت عادي مثل العصر الذي تعيش فيه. سوف أخرج إلى الشارع

وأهاجم أي رجل كان. أنت تدفعني لأن أصبح مجرمًا». -- أدركت الخطر الذي يحيط بي، لذلك وفي الوقت الذي نطقت فيه كلماتي، كنت قد قفزت نحو الباب، وعندئذ صحت بغضب: «وداعًا يا حضرة الناظر»، وانسللت بمنتهى الليونة عبره. بقيت واقفًا في الدهليز وتنصَّت من خلال ثقب المفتاح. بقي كل شيء في المكتب ساكنًا تماماً. مشيت إلى غرفة الدروس وغرقت في قراءة كتاب: «إلامَ يهدف معهد الفتيان؟».

يتألف درسنا من قسمين، قسم نظري وآخر عملي. لكن كلا القسمين يبدوان لي حتى اليوم مثل حلم، مثل حكاية خرافية بلا معنى، وفي الوقت نفسه ذات مغزى عميق. والحفظ عن ظهر قلب هو واجبنا الأساسي. أنا أحفظ غيبًا بسهولة كبيرة، في حين يستصعب كراوس ذلك، ولهذا فإنه لا يني يحفظ. والصعوبات التي عليه التغلب عليها في ذلك، هي سر اجتهاده، وحله في الوقت نفسه. إنه يتصف بذاكرة خاملة، ورغم ذلك فإنه يثبِّت فيها وإن بجهد كبير، كل ما يجب عليه. وهذا الذي يعرفه يبقى في رأسه كما لو كان محفوراً في معدن، فلا يستطيع أن ينساه. النسيان وما شابه ذلك غير وارد لديه نهائيًا. وحيثما كان التعليم قليلًا، تلاءم كراوس معه، وبناء على ذلك فهو في معهد بنيامنتا في مكانه الصحيح تمامًا. أحد مبادئ معهدنا يقول: «تعلم قليلًا، إنما جذريًا». وكراوس متمسك كليًا بهذا المبدأ، وهو الذي جاء إلى الدنيا بجمجمة قاسية نوعًا ما. تعلَّم قليلًا! ودائمًا الشيء نفسه! تدريجيًا بدأت أنا أيضاً بفهم العالم الواسع الكامن وراء هذه الكلمات. أن تثبِّت شيئًا ما حقاً في ذاكرتك، إلى الأبد! إني أدرك مدى أهمية ذلك، وبالدرجة الأولى مدى خير ذلك وجدارته. القسم العملي أو الجسمي من درسنا هو نوع من التدريب الرياضي أو الرقص المتكرر باستمرار، بغض النظر عن كيفية تسمية ذلك. التحية، الدخول إلى غرفة، السلوك تجاه النساء وما شابه ذلك يجري التدرب عليه، وفي الحقيقة بنَفَسٍ طويل جدًا، وغالبًا إلى حد الإملال. ولكن حتى هنا أيضًا، حسبما ألاحظ الآن وأحس، ثمة مغزى عميق كامن وراء ذلك. إنهم يريدون أن يربونا نحن التلاميذ ويشكِّلونا، حسبما ألاحظ، وليس أن يحشونا بالعلوم. إنهم يربونا، وذلك بإرغامنا على معرفة طبيعة أرواحنا وأجسامنا حق المعرفة. إنهم يُفهِمونا بوضوح أن الإلزام وحده

والتقييدات تقود إلى التربية، وأن في تمرينٍ بسيط جدًا وسخيف في الوقت نفسه، يكمن مزيد من النِعم ومن المعلومات الصادقة، أكثر من تعلم أنواع كثيرة من المصطلحات ومعانيها. إننا ندرك باستمرار، وما ندركه يتملَّكنا. لسنا مَن يملكه وإنما بالعكس، أي أن ما جعلناه ملكنا، يسيطر علينا. إنهم يُرسِّخون في وعينا أن ثمة تأثيراً مفيدًا في التكيّف مع القليل المؤكد الثابت، أي في التعود على والالتصاق بقوانين وأوامر تَنصُّ على مظهر صارم. لربما يبغون استغباءنا، لكنهم في كل الأحوال يريدون جعلنا صغاراً. إلا أنهم لا يُرهِبونا أبدًا. فنحن التلاميذ نعرف بالدرجة نفسها، أن الاستحياء يخضع للعقاب. فمن يبدي ترددًا أو خشية يعرِّض نفسه لسخرية الآنسة، ولكن يجب أن نكون صغاراً ويجب أن نعرف ذلك، أن نعرف بكل دقة أننا لسنا شيئًا كبيراً. إن القانون الذي يأمر والإلزام الذي يُجبرِ وكل التعليمات القاسية التي تحدد لنا الاتجاه والذوق: هذا هو الكبير، ولسنا نحن، لسنا نحن المتدربين. حسنًا، كلنا يحس، حتى أنا، أننا لسنا أقزامًا صغاراً، مساكين، تابعين، ملزمين بطاعة مستمرة. وهكذا نتصرف أيضاً: بخضوع، ولكن بكل طمأنينة. نحن كلنا بلا استثناء تقريبًا نشطاء نوعًا ما، لأن الصَغار والحاجة اللذين نعيشهما، يدفعاننا إلى الإيمان بكل قوة بالمنجزات القليلة التي حققناها. وإيماننا بأنفسنا هو تواضعنا. لو أننا لا نؤمن بأي شيء، لما عرفنا مدى صِغرنا. على كل حال، نحن الفتيان الصغار نُعتَبر شيئًا ما. لا يجوز لنا أن نشط، ولا أن نسرح في خيالنا، يحظر علينا أن ننظر بعيدًا، وهذا يجعلنا راضين، ومستعدين لأي عمل عاجل. معرفتنا بالدنيا سيئة جدًا، لكننا سنعرفها، لأننا سنكون عرضة للحياة وعواصفها. إن مدرسة بنيامنتا هي الردهة المؤدية إلى غرف معيشة الحياة الرحيبة وصالاتها الفخمة. هنا نتعلم الإحساس بالاحترام، ويجب علينا أن نتصرف مثل أولئك الذين عليهم رفع أبصارهم إلى شيء ما. أنا مثلًا مترفع قليلًا عن هذا كله، هذا حسن، لكن الأحسن أيضًا هو تأثير كل هذه الانطباعات عليَّ. فأنا تحديدًا بحاجة إلى تعلم الشعور بوافر الاعتبار والاحترام الأليف تجاه أشياء ومواضيع الدنيا، إذ إلى أين سأصل، إذا تجاهلت السن، وأنكرت الرب، وسخرت من القوانين، وسُمِح لي بدس أنفي الفتي في كل ما هو جليل، مهم وعظيم؟ في رأيي، هنا تكمن في وقتنا الحاضر علة الجيل الفتي،

الذي يصرخ محتجًا وشاتمًا ويموء طالبًا البابا والماما، عندما يتوجب عليه أن يخضع قليلًا للواجبات والأوامر والتقييدات. لا ثم لا، هنا يشكل آل بنيامنتا مصابيحي المضيئة الحبيبة، السيد الأخ والآنسة أخته. لن أنساهما طوال حياتي.

صادفت أخي يوهان في أكثر الأماكن ازدحامًا بالناس. وكان لقاؤنا وديًا جدًا، عفويًا وحاراً. كان تصرف يوهان لطيفًا جدًا، وتصرفي أنا كذلك على الأغلب. دخلنا إلى مطعم صغير غير معروف ودردشنا هناك. «ابق على ما أنت عليه، يا أخي»، قال لي يوهان، «ابدأ من القاع، هذا ممتاز. وإذا احتجت إلى مساعدة -- --» أشرت بيدي بحركة خفيفة نافية، فتابع: «إذْ انظر، فوق، لم يعد الأمر يستحق أن يُعاش، كما يقال. افهمني بشكل صحيح، يا أخي العزيز». – أومأت برأسي بحيوية، إذ إن ما قاله كان واضحًا لي مسبقًا، لكني رجوته أن يتابع حديثه، فقال: «فوق، يسود هواء فاسد. أو لنقل، هناك يهيمن جو من «لقد أديت ما عليّ وكفى»، وهذا يعرقل الحركة ويضيِّق الخناق. أرجو ألا تكون فاهمًا ما قلته تمامًا، إذ إن كنت قد فهمت، يا أخي، فستكون في واقع الأمر شنيعًا». –ضحكنا كلانا. ما أجمل أن تستطيع الضحك مع أخ لك. قال: «أنت الآن صفر، كما يقال، يا أخي الرائع. ولكن عندما يكون المرء شابًا فتيًا، فيجب أن يكون المرء صفراً، إذ لا أسوأ من أن يكون المرء في وقت مبكر جدًا شيئًا مهمًا ما. مؤكد أنك تعني شيئًا لنفسك. براڤو. رائع. لكنك مازلت صفراً بالنسبة إلى الدنيا، وهذا على نفس الدرجة من الروعة تقريبًا. ما زلت أرجو أن يكون فهمك لما أقوله غير تام، فلو فهمتني على نحو تام لكنتَ–» –«لكنتُ شنيعًا»، أجبته مقاطعًا كلامه، فضحكنا ثانية. كان الأمر مسليًا جدًا. نار عجيبة بدأت تحل في روحي، وأخذت عيناي تشتعلان. وأنا بالمناسبة أحب جدًا عندما أشعر بأني أشتعل مثل الآن. عندها يصير رأسي أحمر تمامًا، وتدهمني أفكار مشحونة بالنقاء والسمو. تابع يوهان كلامه، وقال التالي: «أرجوك يا أخي ألا تقاطعني دائماً. ضحكُكَ الفتيُ الأحمق ينطوي على ما يخنق الأفكار. اسمع! وانتبه جيدًا! ما سأقوله لك، قد يفيدك ذات يوم. قبل كل شيء: لا يجوز أن يخطر في بالك يومًا أنك منبوذ. حالة النبذ يا أخي غير موجودة أبدًا، إذ ربما لا يوجد في هذه الدنيا أي شيء يستحق فعلًا أن يطمح المرء إليه. ورغم ذلك يجب أن تكون طموحًا، وبكل اندفاع. ولكن كيلا

تكون دائمًا مفرط التوق، اطبع هذا في ذاكرتك: لا شيء، لا شيء إطلاقًا يستحق الطموح إليه. كل شيء فاسد. هل تفهم هذا؟ انظر، أنا أرجو دائمًا ألا تكون قادرًا على فهم هذا كله على نحو كامل. فهذا يقلقني». – فقلت له: «من المؤسف أني ذكي جدًا وقادر على فهمك، رغم رجائك العكس. ولكن لا تقلق. أنت لا ترعبني أبدًا برفعك الستار عن الواقع». – تبادلنا الابتسام، ثم طلبنا مشروبات جديدة، ويوهان، الذي كان بالمناسبة بالغ الأناقة، تابع كلامه: «ولكن هناك بالتأكيد ما يُسمى تقدمًا في العالم، لكنه ليس إلا إحدى الأكاذيب الكثيرة، التي يبْذرها رجال الأعمال، كي يتمكنوا بوقاحة أكبر وبلا رحمة من امتصاص المال من الناس. الجماهير، أي عبيد اليوم، والفرد منهم، هم عبيد الفكرة الجماهيرية العظيمة. لم يعد هناك ما هو جميل ومثالي. وبالتالي عليك أن تحلم بالجميل والخيّر والصالح. أخبرني، أتعرف كيف تحلم ؟» – اكتفيت بهز رأسي مرتين وتركت يوهان ليتابع وأنا أنصت متنبهًا: «حاول أن تنجح في كسب الكثير والكثير من المال. المال لم يطله الخراب بعد، لكنه طال كل شيء آخر. كل شيء، كل شيء أفْسِد وتم تمزيقه، وتجريده من زينته وبهائه. مدننا تتلاشى من على وجه الأرض بشكل لا يمكن إيقافه، ويحل في مكانها كتل معمارية، وهذا يشمل المساكن وقصور الأمراء أيضًا. البيانو صاروا يخبطون على ملامسه بدل العزف، يا أخي! أمسيات الكونسرت والعروض المسرحية تهوي من درجة إلى أخرى، إلى مستوى منحط. ولكن ما زال هناك على كل حال ما يشبه مجتمع النخبة، لكنه لم يعد يمتلك القدرة على عزف ألحان ذات رقة ووقار. وهناك كتب -- باختصار، لا تقنط أبدًا. ابق فقيراً ومزدرى يا صديقي العزيز. وابعِد عن ذهنك فكرة المال. فأن يكون الإنسان شيطانًا فقيراً هو الأجمل والأكثر ظفراً. الأغنياء يا ياكوب غير راضين وغير سعداء. أثرياء اليوم، ما عادوا يملكون شيئًا. هؤلاء هم الجوعى بكل معنى الكلمة». – هززت برأسي ثانية. الحقيقة هي أني أقول نعم بكل سهولة لكل شيء. ثم إن ما قاله يوهان أعجبني ولاءمني. كان هناك فخر فيما قاله وحزن. وهذان معًا، الفخر والحزن، يولِّدان دائمًا وقعًا جميلًا. طلبنا بيرة مجددًا، وتابع يوهان قائلًا: «عليك أن تأمل، وفي الوقت نفسه ألا تأمل شيئًا. تطلع عاليًا إلى أمر ما، نعم، بالتأكيد، فهذا يليق بك، لأنك شاب فتي، فتي جدًا، ولكن عليك أن

تعترف لنفسك دائمًا بأنك تحتقره، هذا الذي تتطلع إليه باحترام. هل تومئ موافقًا ثانية؟ يا للشيطان، أي مستمع فهيم أنت، تكاد تكون شجرة محملة بثمار الفهم. كن مسرورًا يا أخي العزيز، اطمح، تعلم، وإذا كان بمقدورك أن تسدي لشخص ما خدمة عزيزة ولطيفة، فلا تقصر. هيا بنا، يجب أن أذهب. قل لي، متى نلتقي ثانية؟ أنت تثير اهتمامي، بصراحة». – خرجنا، وعلى الرصيف ودعنا بعضنا بعضا. بقيت طويلًا أتابع بنظري أخي العزيز. نعم، إنه أخي. كم يسرني ذلك.

أبي عنده عربة وأحصنة وخادم هو العجوز فيلْمَن، وماما عندها مقصورة خاصة في المسرح، تحسدها عليها نساء المدينة ذات الثمانية وعشرين ألف نسمة. رغم تقدم أمي في السن، فإنها مازالت مليحة، بل جميلة. مازلتُ أذكر ثوبًا فاتح الزرقة، ضيق الخصر ارتدته ذات مرة. كانت تحمل الشمسية البيضاء مفتوحة، والشمس ساطعة. كان الطقس ربيعيًا بديعًا، وفي الشوارع تفوح رائحة البنفسج. كان الناس يتمشون، وتحت أشجار المنتزه الخضراء كانت فرقة المدينة تعزف ألحانًا مرحة. كم كان ذلك حلوًا ونيرًا. ثمة نافورة تتدفق وأطفال بثياب فاتحة الألوان يضحكون ويلعبون. ونسمات ناعمات مداعبات تنشر الأريج، موقظاتٍ التوق إلى ما لا يوصف بالكلام. وكان بعض الناس يُطِلون من نوافذ المساكن الجديدة حول الساحة. كانت أمي ترتدي قفازات طويلة صفراء فاتحة تغطي يديها الدقيقتين وساعديها اللطيفين. حينذاك كان يوهان قد اغترب. لكن أبي كان معنا. لا، أبدًا لن أقبل مساعدة (مالًا) من والديَّ الحنونين المحترمين. فعزة نفسي الجريحة سترميني إلى سرير المرضى، فتضيع أحلام مسيرة الحياة المستقلة ماديًا، وتُدَمَّر إلى الأبد خطط التربية الذاتية التي تشتعل في صدري. فهذا هو السبب: لكي أربي نفسي بنفسي، أو بغية تحضير نفسي لتربية ذاتية مستقبلًا، صرت متدربًا في معهد بنيامنتا، فهنا يتأهب المرء لشيء ما ثقيلٍ وداكن سيأتي من مكان ما. ولهذا لا أكتب رسائل إلى أهلي، لأن كتابة تقرير إخباري عني، وحدها ستُضِلني عن نفسي، وستُزهِدني كليًا عن البدء بالخطة من أساسها. لابد لشيء عظيم وجريء أن يحدث بكل تكتم وهدوء، وإلا فإنه سيخرب ويفسد، والنار التي استيقظت بحيوية، ستنطفئ ثانية. أنا أعرف ذائقتي،

وهذا يكفي. – آه صحيح، صحيح تمامًا. هناك في مخزون ذاكرتي حادثة طريفة تتعلق بخادمنا العجوز فيلمَن، الذي مازال حيًا ويخدُم، وهي كالتالي: ذات يوم ارتكب فيلمن خطأ فاحشاً أدى إلى ضرورة تسريحه. قالت له أمي: «فيلمن، يمكنك أن تغادر. نحن لم نعد بحاجة إليك». –عند ذلك ارتمى العجوز المسكين- الذي دفن قبل وقت قصير ابنه الشاب المصاب بالسرطان (وهذا ليس طريفًا) – ارتمى عند قدمي والدتي وطلب الرحمة، الرحمة تحديدًا. وانهمرت الدموع من العينين الكليلتين للرجل العجوز المسكين. فسامحته أمي. في اليوم التالي حكيتُ المشهد لزميليَّ الأخوين ڤايبل، فضحكا ساخرين مني وازدرياني، ثم تخليا عن صداقتي مبررين ذلك بأن الأمور في بيتنا تجري على نحو ملوكي. ورأيا في الارتماء عند القدمين دلالة مشبوهة، وأخذا يشهّران بي وبأمي بأكثر الطرق ابتذالًا، مثل وغدين حقيقيين، بل أيضاً مثل فتَيين جمهوريين حقيقيين، يعتبران أن السماح بمنح الرحمة أو إنزال العقاب على مستوى فردي أو سيادي، أمر فظيع يثير الاشمئزاز. كم يبدو لي هذا الآن غريبًا، ومع ذلك كم يدل هذا الحدث البسيط على نحو مميز على مسار العصور. كما الأخوين ڤايبل آنذاك، يطلِق عالمٌ بكامله اليوم حكمه: لم يعد العصر يحتمل السلوك المتعالي للسادة والسيدات. فلم يعد هناك سادة يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون، كما أن السيدات قد أفل عصرهن. أيفترض بي أن أحزن لهذا السبب؟ لا أنوي ذلك. هل أنا مسؤول عن روح العصر؟ أنا أقبل العصر على علاته، وأحتفظ لنفسي بحق أن أجري ملاحظاتي بصمت. فيلمن الطيب: لقد صُفح عن خطئه باحترام بالأسلوب البطريركي. فسالت دموع الإخلاص والتعلق، كم هذا جميل.

منذ الساعة الثالثة بعد العصر نصبح نحن المتدربين في عهدة أنفسنا تقريبًا، ولا أحد يهتم بنا. المشرف والمعلمة محتجبان في الغرف الداخلية، وفي غرفة الدروس يسود شعور بالقفر، قفرٌ يكاد يمُرِض. لا يجوز التسبب بضجيج. يُسمح فقط بالهفيف والتسلل والكلام همساً. شيلينسكي يتمعن في نفسه بالمرآة، وشاخت ينظر عبر النافذة إلى الخارج أو يتبادل الإشارات مع عاملة المطبخ في البناء المقابل، وكراوس يحفظ عن ظهر قلب بأن يهمهم الدروس لنفسه. في كل مكان يسود صمت قبور. الفِناء مهجور مثل أبدية مستطيلة الشكل، وأنا أقف

غالباً منتصبًا وأتمرن على الصمود على ساق واحدة. وأحيانًا على سبيل التغيير أكتم أنفاسي طويلًا، وهو تمرين أيضًا، يُفترض به، حسبما أخبرني طبيب ذات مرة، أن يحسِّن الصحة. أو أكتب. أو أغمض عيني غير المتعبتين، كيلا أرى شيئًا. فالعيون وسيط لنقل الأفكار، لهذا أغمضهما بين الحين والآخر، كيلا أضطر إلى التفكير. عندما يوجد المرء هكذا دون أن يفعل شيئًا، فإنه يحس فجأة، كم يمكن لهذا الوجود أن يكون مضجرًا. ألا تفعل شيئًا وفي الوقت نفسه أن تراقب سلوكك، هذا يتطلب طاقة، وبالمقارنة تعتبر حياة الكادح سهلة. ونحن التلاميذ نُعد أساتذة في هذا النوع من التأدب. وإلا لبدأ المتبطلون نتيجة للملل مثلًا، بالتواقح قليلًا، بالركل، بالتثاؤب أو بالتنهد والزفر. أما نحن فلا نفعل هذا، بل نُطبِق شفاهنا على بعضها ونسكن بلا نأمة. وفوق رؤوسنا تحوِّم دائمًا التعليمات العَبوس. أحيانًا، فيما نحن جالسين أو واقفين هناك، ينفتح الباب وتدخل الآنسة عابرة غرفة الدرس وهي تنظر إلينا بطريقة غريبة. عند ذلك أحس بها وكأنها روح، كأن أحدهم قادم من مكان بعيد، من مكان ناءٍ. « ماذا تفعلون يا صبيان؟» تسأل من ثم ، ومن دون أن تنتظر جوابًا تتابع سيرها. ما أجملها. يا لغزارة شعرها الأسود العميق الدكنة. غالبًا ما يراها المرء مسبلة الجفنين. لها عينان صالحتان بشكل رائع للقتل. وجفناها (إني أراقب كل هذا بدقة) مقوسان بامتلاء وقادران على الحركة السريعة بصورة ساحرة. هاتان العينان! إذا نظر المرء فيهما فقد نظر في عمق سحيق ومخيف. تبدو هاتان العينان بسوادهما المتألق وكأنهما لا تقولان شيئًا، وتقولان في الوقت نفسه كل ما لا يقال، وتوحيان بألفة كبيرة وفي الوقت نفسه بغربة عميقة. حاجباها رفيعان إلى حد الانكسار ويرسمان فوق العينين قوسين مسحوبين. ومن يدقق النظر فيهما يشعر بوخزات. إنهما مثل هلالين في مساء سماء شاحبة مريضة، مثل جرحين دقيقين، لكنهما عميقي الطعن وشديدي الوخز داخليًا. ووجنتاها! يبدو أن التوق الصامت وعدم اليقين يقيمان احتفالات عليهما. والنعومة والرقة غير المفهومتين تبكيان فوقهما وتحتهما. أحيانًا تتبدى على الثلج الوامض لهاتين الوجنتين حمرة خفيفة متوسلة، حمرة حياة حيّة، شمسٍ، لا، بل مجرد انعكاس ضعيف لها. ثم بدا وكأن الوجنتين قد ابتسمتا فجأة، أو تلهفتا قليلًا. عندما يرى المرء وجنتي الآنسة

بنيامنتا يفقد الرغبة في الاستمرار حيًا، إذ سينتابه عندئذ الشعور وكأن الحياة حشد جحيمي من فظاظات وضيعة. وشيء بهذه النعومة يتيح إمكانية رؤية شيء بهذا الثقل والتهديد، وعلى نحو مسيطر تقريبًا. وأسنانها التي كانت تومض عندما يبتسم فمها المترف الطيب، وعندما تبكي. يتبادر إلى ذهن المرء إذا رآها تبكي، أن الأرض ستهوي لابد عن نقاط ارتكازها خجلًا وألماً. أما إذا سمع المرء بكاءها أولًا، فلا شك في أنه سيتلاشى. سمعنا بكاءها مؤخراً في منتصف الحصة الدرسية. ارتجفنا كلنا مثل أوراق الحور الراجف. نعم، كلنا. نحن نحبها. فهي معلمتنا، قدوتنا السامية. وهي تعاني شيئًا ما، هذا واضح. أهي مريضة؟

الآنسة بنيامنتا تبادلت معي بضع كلمات في المطبخ. كنت على وشك الذهاب إلى غرفتي، عندما سألتني، وبالمناسبة من دون أن تتعطف عليّ بنظرة: «كيف أحوالك ياكوب؟ هل أنت بخير؟» عند ذلك اتخذتُ فورًا وضعية الاستعداد حسبما يليق، وقلت بلهجة الخضوع: «بالتأكيد يا آنستي المحترمة. أحوالي لا يمكن أن تكون إلا جيدة». -فابتسمت ابتسامة خفيفة وسألت: «ما قصدك من هذا؟» -سألتني ذلك من فوق كتفها، فأجبتها: «لا ينقصني أي شيء». -- نظرت إليّ نظرة سريعة وصمتت، ثم قالت بعد برهة: «بإمكانك الذهاب، ياكوب، أنت حر. لا داعي لبقائك هنا». -أبديت تجاهها الاحترام الواجب، بأن انحنيت لها وأسرعت إلى غرفتي. لم تمض خمس دقائق حتى قُرع بابي. فهرولت لفتحه، لأني كنت أعرف طريقة القرع. كانت واقفة أمامي، وسألتني: «ياكوب، أخبرني، كيف تتحمل زملاءك؟ إنهم لطاف المعشر، أليس كذلك؟» - أجبتها بأني أجدهم جميعهم بلا استثناء، أهلًا للمحبة والاحترام. رمشت المعلمة بمكر بعينيها الجميلتين وقالت: «يا للعجب، ومازلت تتشاجر مع كراوس. هل الشجار عندك دلالة على المحبة والاحترام؟» -فأجبتها دونما تردد: «بمعنى ما، نعم يا آنسة. وبالمناسبة، هذا الشجار لم يكن جدياً. لو كان كراوس نبيهًا، للاحظ أني أفضله على الجميع. أنا أحترم كراوس جدًا، جدًا. وسيؤلمني إن لم تصدقيني في هذا». -أمسكت يدي وضغطتها قليلًا وقالت: «اهدأ الآن. انظر كيف تثور بسرعة، يا لحدَّة طبعك. إذا كان الأمر كما تقول، فيجب أن أكون راضية عنك، وأنا كذلك، إذا استمريت في لطفك. نعم، تذكر دائمًا أن كراوس فتى رائع، وستسيئ إليّ إنْ

قابلته بخشونة. عامله بلطف. وأنا أصر على ذلك. ولكن لا تحزن. ألا ترى أني لا أتهمك بشيء. يا لك من أرستقراطي مدلل مدلع! كراوس إنسان طيب. أليس كذلك ياكوب؟» – قلت: «نعم». ولم أزد عليها، ثم فجأة وجدت نفسي أضحك بحماقة، ولم أعرف لماذا أبدًا. فهزت رأسها وغادرت. ما الذي جعلني أضحك؟ حتى الآن مازلت لا أعرف. لكن المسألة كلها غير ذات قيمة إطلاقًا. متى سأحصل على بعض المال؟ هذه المسألة تبدو لي مهمة. النقود تمتلك في عينيَّ حاليًا قيمة نموذجية كليًا. عندما أتخيل رنين قطعة ذهبية، أكاد أشتعل جنونًا. عليَّ أن آكل: اللعنة. أرغب في أن أكون ثريًا وأن أكون قد حطمت رأسي. قد لا أستطيع قريبًا أن آكل أي شيء على الإطلاق.

لو كنت غنيًا، لما قمت أبدًا بجولة حول العالم. علمًا بأن هذا قد لا يكون سيئًا بالمرة. لكني لا أرى شيئًا خارقًا في التعرف سطحيًا على ما هو غريب. بصورة عامة سآنف من متابعة تثقيف ذاتي، كما يقال. وما سيجذبني بالأحرى هو العمق، الروح، أكثر من البعيد النائي. ولن أقتني لنفسي أي شيء. لن أجمع ممتلكات. سأكتفي بثياب خارجية أنيقة وداخلية فاخرة وقبعة أسطوانية وأزرار أكمام قميص ذهبية متواضعة وحذاءً لماعًا طويلًا، وبها سأنطلق. لا دارًا ولا حديقة ولا خادمًا، بل بالتأكيد سأوظف خادمًا، خادمًا وقورًا مثل كراوس. وعند ذلك يمكن الانطلاق. سأمشي في الشارع في الضباب الكثيف. والشتاء ببرده الكئيب سيلائم تمامًا زرّيَّ الذهبيين. أما النقود الورقية فسأحملها في جزداني البسيط. سأمشي على قدميَّ، كالعادة تمامًا، مع الرغبة الدفينة غير الواعية بألا يظهر عليّ على نحو جليٍّ مدى ثرائي الباهر. ومن المحتمل أن يهطل الثلج. لن يهمني ذلك، بالعكس، سيلائمني جدًا. هطلٌ ناعم بين الفوانيس المشتعلة مساء، سيكون بريقه مثيراً. لن يخطر في بالي أبدًا أن أركب عربة تجرها الجياد. هذا يفعله أناس، إما مستعجلين أو يتظاهرون بالنبالة. أما أنا فلن أرغب أبدًا بالتظاهر بالنبل، ولن أكون مستعجلًا أبدًا. وستخطر في بالي أفكار أثناء مشواري. فجأة سوف أسلم على شخص ما، بكل تهذيب، وسيتمخض عن رجل. وسوف أنظر الآن إلى هذا الإنسان بكل لطف، وعندئذ سوف أرى أن حاله سيئ. لن أرى ذلك بل سوف ألاحظه، فمثل هذه الأمور يلاحظها المرء ويكاد لا يراها، لكنه

سيلاحظها من شيء ما. والآن سيسألني هذا الرجل، ماذا أريد، وسينطوي السؤال على ثقافة. وهذا السؤال سيُطرَح عليّ بكل نعومة وبساطة، وهذا سوف يزلزلني. لأني سأكون مستعدًا تمامًا لشيء فظٍ. «الرجل يعاني جرحًا عميقًا»، سأقول لنفسي فورًا، «وإلا لأبدى انزعاجًا». – وعند ذلك سوف لن أقول شيئًا، لا شيء مطلقًا، بل سوف أكتفي بأن أتأمله. ليس بحدة، لا، بل بكل بساطة، وربما بشيء من السرور. وعندئذ سوف أعرف مَن هو. وسوف أفتح جزداني وأسحب منه عشرة آلاف ماركًا بعشرة أوراق من فئة الألف، وسوف أعطي المبلغ للرجل. ثم وباللطف نفسه كما قبل قليل، سأرفع قبعتي تحية وأقول له ليلتك سعيدة وأمشي. وسيتابع الثلج هطله الخفيف. أثناء المشي سوف أتوقف عن التفكير كليًا، لن يكون بمقدوري ذلك، لأني سأكون في خير حالٍ لأمر كالتفكير. كان فنانًا معدمًا حتى القرف، هذا الذي سأعطيه المبلغ، وكنت سأعرف ذلك حتمًا. نعم، كنت سأعرفه، لأني ما كنت لأستطيع أن أترك نفسي تُخدَع. وسيكون العالم قد نقص حالة من الهم العظيم، الحار، الصادق. حسنًا، وفي الليلة التالية ربما ستخطر في بالي أفكار مختلفة تمامًا. لكني على كل حال لن أسافر حول الأرض، بل سأفضل أن أرتكب أنواعًا من الجنون والحماقة. مثلًا، سيمكنني أن أقيم مأدبة غنية حتى الجنون بالملذات وحفلات مجون وعربدة لم يسبق لأحد أن رأى مثيلًا لها. وسأجعلها تكلفني مئة ألف. ومن المؤكد أن لابد للمال من أن يُستهلك بطريقة تربك الحواس، لأن المال المبدد حقًا هو الذي سيكون -- -- جميلًا حقًا. وذات يوم سوف أتسول، وعند ذلك لسوف تسطع الشمس، وسأكون مسرورًا جدًا بما لن أرغب أبدًا في معرفته. ثم ستأتي ماما وتعانقني وتضمني -- –. يا لها من أحلام وتخيلات!

ثمة شيء عتيق في وجه كراوس وفي طبيعته، وهذا العِتق يقود مَن يتأمله إلى فلسطين. أيامُ إبراهيم تنبعث حية من جديد على مُحيَّا زميلي في المعهد. فيتجلى العصر البطريركي العتيق بأخلاقه الغامضة ونواحيه الريفية وينظر إلى الفرد منا بأبوة. ويخيل إليَّ أنه لم يوجد آنذاك سوى آباء بوجوه مغرقة في العتق بلحى بنيّة متشابكة الشعر، وهذا محض هراء طبعًا. ورغم ذلك لربما هناك شيء، في هذا الإحساس الساذج، يطابق الحقائق. نعم، آنذاك! وحتى هذه

الكلمة: آنذاك، كم توحي بالعتق والألفة. في أيام بني إسرائيل العتيقة كان من الجائز بين الحين والآخر وجود رجل باسْم بابا إسحاق أو بابا إبراهيم وكان يتمتع بالاحترام ويعيش أيامه الأخيرة في ثراء طبيعي متكون من ملكيات أراضٍ زراعية. آنذاك كان يحيط بسنوات الشيخوخة شيء يشبه الإجلال. الشيوخ آنذاك كانوا بمنزلة ملوك، والسنوات المُعاشة كانت تعني ما يعادلها من حقوق السيادة المكتسبة. وكم حافظ هؤلاء الشيوخ على شبابهم. كانوا وهم في المئة من أعمارهم يبذرون أبناء وبناتًا. آنذاك لم يوجد أطباء أسنان، ولهذا على المرء أن يفترض عدم وجود أسنان خربانة نهائيًا. وما أجمل مثلًا يوسف في مصر. كراوس يشبه إلى حد ما يوسف في دار بوتيفار (العزيز). ها هو قد بيع كعبد فتي، وإذا به يُلحَق برجل عظيم ومستقيم وفاحش الثراء. وقد صار عبدَ الدار، لكنه مرفه جدًا. ربما كانت القوانين آنذاك غير إنسانية، حتمًا، لكن العادات والتقاليد والآراء كانت على النقيض أرق وألطف. اليوم ستكون أوضاع العبد أسوأ بكثير، أعوذ بالله! وبالمناسبة، هناك الكثير والكثير جدًا من العبيد بيننا، نحن أبناء العصر الحديث، أناس متغطرسون –منتهون كليًا. من المحتمل أننا جميعنا أبناء هذا العصر نشبه العبيد، محكومين بفكرة عالمية فظة، حانقة، تلوِّح بسياطها. - حسنًا، وذات يوم تطلب سيدة الدار من يوسف أن يطاوعها. ما أغرب أن يبقى المرء حتى اليوم عارفًا بأمور السلالم والأبواب كما كانت قبل عصور سحيقة، فتستمر حية عن طريق تناقلها من فم إلى فم. هذه القصة تُدرَّس للتلاميذ في جميع المدارس الابتدائية، وهناك مَن يريد الآن انتقاد هذا المتحذلق؟ أنا أحتقر الناس الذين يحطّون من قدر الحذلقة الجميلة، هؤلاء أجدهم بلا ريب قليلي عقل، أناسًا لا يجيدون مَلَكَة النقد. طيب، فإذا بـ كراوس يرفض، أردتُ أن أقول يوسف. ولكن من المحتمل جدًا أن يكون كراوس، إذ إنه يحمل شيئًا من ملامح يوسف في مصر. «لا، سيدتي الكريمة، أنا لا أفعل مثل هذه الأمور. أنا مدين بالإخلاص لسيدي». – فإذا بالسيدة الفاتنة، بالمناسبة، تشكو الخادم الشاب، مدعية بأنه قام بفعلٍ دنيء راغبًا في إغواء سيدته لارتكاب الخطيئة. لكني لا أعرف أكثر من ذلك. عجيب، أني لا أعرف الآن ما قاله بوتيفار وما فعله. لكني مازلت أرى النيل بكل وضوح. نعم، يمكن لـ كراوس أن يكون يوسف، أو أي

شيء. السلوك، الهيئة، الوجه، التسريحة والإيماءات تتطابق تمامًا. وحتى وسامه الجلدي الذي للأسف الشديد لم يشفَ بعد. البثور شأن إنجيلي، مشرقي. وماذا عن الأخلاق، الشخصية، والتحلي الحق بفضائل شاب خجول؟ كل هذا ينطبق على نحو رائع. لابد أن يوسف في مصر كان أيضًا متحذلقًا أصيلًا فتيًا، وإلا لطاوع سيدته الشهوانية وتنكر لإخلاصه لسيده. كراوس كان سيتصرف مثل شبيهه المصري العتيق. سيرفع يديه مناشدًا ويقول بسحنة وجهه نصف المبتهلة نصف المعاقِبة: «لا، لا، أنا لا أفعل مثل هذه الأمور». وإلخ.

كراوس العزيز. دائمًا تجذبني أفكاري نحوه. إنه يمثل بوضوحٍ المعنى الحقيقي لكلمة تربية. في الحياة العملية مستقبلًا، حيثما سيصل كراوس، سيكون إنسانًا نافعًا، لكنه سيُعتبر إنسانًا غير متعلم، أما من وجهة نظري فهو متعلم بالتأكيد، وسبب ذلك بشكل رئيسي، لأنه يمثل كلًا راسخًا وجيدًا. ويمكن للمرء أن يطلق عليه هو تحديدًا صفة متعلم إنسانيًا، وهي صفة ترفرف حوله، ولكنها ليست مكوَّنة من معارف محفوظة وغير مفهومة. إنما ثمة ما هو راسخ فيه، وهو نفسه مستقر وراسخ على شيء ما. يمكن للمرء أن يعتمد على كراوس حتى بروحه، فهو لن يخدع أحدًا ولن يفتري على أحد أبدًا، وفي المقام الأول يأتي، أنه ليس ثرثارًا، وهذا أسميه أنا تربية. إن مَن يثرثر، يغش، وقد يكون من ألطف الناس، لكن نقطة ضعفه: أنْ يثرثر بكل ما يفكر فيه آنيًا، تجعل منه زميلًا سمجًا وسيئًا. كراوس يصون لسانه، يحتفظ دائمًا بشيء ما لنفسه، ويعتقد بأنه ليس من الضروري أن يثرثر به، ولهذا تأثيره مثل الطيبة والمراعاة الحقة. هذا أسميه تربية. كراوس ليس ودودًا، وغالبًا ما يكون خشنًا مع أناس من عمره وجنسه، ولهذا السبب تحديدًا أكِنُّ له ودًّا كبيراً، لأن هذا يثبت لي، أنه لا يعرف الخيانة القاسية والطائشة. إنه صادق ومستقيم تجاه الجميع. إذ إن الأمر في الواقع هو كالتالي: اعتاد المرء استغلال اللطف العادي ليقوم غالبًا بتدنيس سمعة وحياة جيرانه وزملائه وحتى أخيه بأشنع أسلوب. معارف كراوس قليلة، لكنه ليس طائشًا أبدًا. إنه يُخضِع نفسه دائمًا لأوامر ذاتية، وهذا أسميه تربية. إن ما يتصف به الإنسان من لطف ومراعاة لمشاعر الآخرين هو التربية. ومن ثم هناك الكثير من الأمور. كالبعد عن أي نوع وشكل من الأنانية، وأن يكون بالمقابل أقرب ما يكون

إلى الأنانية، مثل كراوس، هذا فيما أظن، هو ما دعا الآنسة بنيامنتا لأن تقول: «كراوس صالح، أليس كذلك يا ياكوب؟» -- -- نعم، إنه صالح. إذا خسرتُ هذا الرفيق، فسأخسر ما لا يُقدَّر بثمن، أعرف ذلك. وأكاد أخشى الآن من الاستمرار في الشجار مع كراوس بالطريقة المرحة. لم أعد أرغب إلا في تأمله، دائمًا، تأمله وحسب، إذ إني سأضطر في المستقبل إلى الاكتفاء بصورته، لأن الحياة القاسية سوف تفصلنا عن بعضنا بعضا.

الآن بدأت أفهم أيضًا، لماذا لا يملك كراوس ميزات مظهرية، لماذا لا يملك هشاشات جسدية، لماذا ضغطته الطبيعة على هذا النحو كقزم وشوهته. إنها تريد به شيئًا ما، إنها تخطط لشيء ما يتعلق به، أو أنها قد خططت ذلك منذ البداية. لربما كان هذا الإنسان بالنسبة إلى الطبيعة نقيًا أكثر مما يلزم، ولهذا رمته في هذا الجسم التافه، الضئيل، البشع، كي تحفظه من النجاحات الخارجية المهلِكة. ولربما كان الأمر مغايرًا، فكانت الطبيعة ساخطة ولئيمة، عندما خلقت كراوس. ولكن كم هي آسفة الآن لمعاملتها إياه على نحو ظالم. ومَن يدري، لربما تكون مسرورة بهذا المنجَز القميء الذي أبدعته، وهي تملك حقًا سببًا لسرورها، فـ كراوس القميء هذا هو أجمل من الأناس الأكثر بهاء وجمالًا. إنه لا يلمع بالمواهب، ولكن بوميض قلب طيب سليم معافى، وربما كانت أخلاقه السيئة البسيطة، رغم خشونتها، هي أجمل الموجود في المجتمع البشري على صعيد الحركة والسلوك. لا، لن يحوز كراوس على أي نصر، لا على صعيد النساء، اللواتي سيجدنه جافًا وبشعًا، ولا على صعيد الحياة الدنيوية، التي ستتجاوزه غافلة عنه. غافلة عنه؟ نعم، لن ينتبه أحد لوجود كراوس، وهذا تحديدًا، أي أن يمْضي حياته دون أن يحظى بإثارة الانتباه، سيكون الأمر الرائع والمنهجي، الذي يذكِّرُ بالخالق. يمنح الرب الدنيا كراوسًا، ليكلفها في الحقيقة بلغز عميق غير قابل للحل. وهذا اللغز سوف لن يُفهَم أبدًا، لأن الإنسان لن يبذل أي جهد من أجل حله، ولهذا تحديدًا فإن لغز- كراوس هذا يُعد رائعًا وعميقًا: لأن أحدًا لا يرغب في حله: وذلك بصورة عامة لعدم وجود إنسان حي سيخمِّن وجود أي مهمةٍ أو لغز ما أو معنى دقيق وراء كراوس هذا النكرة غير الملحوظة. إن كراوس إنتاج رباني حقيقي، إنه لا شيء، خادم. غير متعلم، أو

فقط بما يكفي للقيام بأكثر الأعمال مرارة، هكذا سيبدو لكل إنسان، والغريب، أن المرء في حكمه هذا، لن يجانب الصواب، بل سيكون محقًا تمامًا، لأن الحكم صحيح: فـ كراوس الذي يجسد التواضع نفسه وتاجَ بل قصرَ الخضوع، يريد القيام بأعمال وضيعة، إنه قادر على ذلك ويريده. ولا يوجد في ذهنه سوى تقديم المساعدة والطاعة والخدمة، والمرء سيلاحظ ذلك بسرعة وسوف يستغله، وفي استغلاله هذا تكمن عدالة ربانية ذهبية مضيئة، تشع بالطيبة والصفاء. نعم، إن كراوس هو صورة طبيعةٍ منصفة، بالغة الرتابة، قليلة الكلام، وشديدة الوضوح. ما من أحد سيسيئ فهم سذاجة هذا الإنسان، ولهذا السبب لن يعبأ به أحد، وسيبقى بالتأكيد بلا نجاح. إني أجد الأمر مثيراً، شديد الإثارة، بالغ الإثارة. نعم، فما يخلقه الرب يكون كريمًا جدًا، مثيراً جدًا، مزدانًا ببذخٍ بالانفعالات والأفكار. وسيفكر المرء بأن في هذا القول ما يدل على غرابة أطوار. حسنًا، لابد من أن أعترف، بأن هذا لم يبلغ بعد درجة غرابة الأطوار القصوى. لا، لا نجاح ولا شهرة ولا حب سوف يزهرون من كراوس، أبدًا، وهذا ممتاز، إذ ليس للنجاحات من مرافقات غير قابلة للإزالة سوى التشوش وبعض العقائد الرخيصة. يحس المرء فورًا عندما يحصل الناس على نجاحات وثناءات، إذ يسمنون من الرضا الذاتي المشبِع، كما أن قوة الغرور تنفخهم مثل البالونات، بحيث يفقدون ملامحهم. فليحفظ الرب إنسانًا صالحًا من ثناءات الجماهير. فإن لم تُفسده، فستربكه وتوهِنه فحسب. أما الشكر، فنعم. الشكر أمر آخر تمامًا. ولكن حتى الشكر لن يتلقاه كراوس من أحد، وهذا على كل حال ليس ضرورياً. كل عشر سنوات قد يحدث ويقول أحدهم لـ كراوس: «شكرًا كراوس»، وعندها سوف يبتسم بغباء، بغباء شنيع. إن كراوس الذي أعرفه لن يصير مهملًا أبدًا، لأنه سيواجه دائمًا صعوبات كبيرة وقاسية. أعتقد أني، أنا أحد قلة صغيرة، وربما الوحيد، أو أحد اثنين أو ثلاثة، من الذين سيعرفون ماذا يمتلكون أو امتلكوا بعلاقتهم بـ كراوس. الآنسة، نعم، إنها تعرف. والسيد الناظر ربما. بل بالتأكيد. السيد بنيامنتا صاحب نظرة ثاقبة بما يكفي، ليتمكن من أن يعرف قيمة كراوس. يجب أن أتوقف اليوم عن الكتابة. إني أتحمس بشدة. إني أتوحش. والحروف تومض وترقص أمام عيني.

وراء معهدنا توجد حديقة قديمة مهملة كليًا. عندما أراها في الصباح الباكر من نافذة مكتب الناظر (عليَّ مع كراوس ترتيبه وتنظيفه صباح كل ثاني يوم) أشعر بالحزن لبقائها بهذه الصورة دونما رعاية، وفي كل مرة تنتابني الرغبة في أن أنزل إليها لأعتني بها. هذه على كل حالة اندفاعات عاطفية. وليأخذ الشيطان هذه الرخاوة العاطفية المضلِلة. لدينا في معهد بنيامنتا حدائق أخرى مختلفة. الدخول إلى الحديقة الفعلية ممنوع، إذ يُحظر على جميع المتدربين أن يدوسوا أرضها، ولماذا، لست أدري. ولكن كما قلت، لدينا حديقة أخرى، ربما أجمل من الفعلية. في كتابنا التعليمي: «ما هو الغرض من معهد الفتيان؟» وردَ في الصفحة الثامنة: «إن السلوك الجيد يُعَد حديقة مزهرة». وبهذا المعنى يجوز لنا نحن التلاميذ أن نتجول ونقفز في هذه الحدائق الفكرية والحساسة. لا بأس. إذا تصرف أحدنا على نحو سيئ، فسيتحول، كما من نفسه، إلى جحيم مظلم فظيع. أما إذا حافظ على السلوك القويم، فسيُكافأ بأن يتمشى مرتاحًا بين الخضرة الظليلة التي تتخللها أشعة الشمس. يا للإغراء! وفي رأيي المتواضع كفتى، ثمة ما هو حقيقي في هذه الجملة التعليمية اللطيفة. إذا تصرف أحدنا بحماقة، فعليه أن يخجل من نفسه ويمتعِض، وهذا هو الجحيم المحرِج الذي سيتعرق فيه. وعلى النقيض، إذا تصرف بتهذيب وكان مطواعًا، فسيقوده من يده شخص غير مرئي، شيء أليف مثل جنِّي، وهذه هي الحديقة، القَدَرُ الكريم، حيث يتمشى التلميذ الهوينى بعفوية في الحقول الخضراء الأنيسة. إذا حدث أن رضي أحد تلاميذ معهد بنيامنتا عن نفسه، الأمر الذي ندر أن يحدث -ما دامت التعليمات عندنا تُبرِق وترعِد وتسَّاقطُ بردًا وثلجًا ومطرًا-، فتتضوَّع من حوله الرائحة الطيبة للمديح المتواضع الذي استحقه بجدارة. عندما تمدح الآنسة بنيامنتا، تفوح الرائحة الطيبة، وعندما تُعنِّف، تُظلِم في غرفة الدروس. يا لها من عالم غريب عجيب: مدرستنا. إذا كان سلوك أحد التلاميذ مهذبًا ولائقًا، فسيتقوس فجأة حول رأسه شيء ما، إنها السماء الزرقاء التي لا غنى عنها فوق الحديقة المتخيلة. وإذا أبدينا نحن المتدربين صبراً واضحًا، وحافظنا رغم الجهد المبذول على استقامة وقوفنا أثناء ما يُسمى الانتظار بصمود، عندئذ يشع اللون الذهبي فجأة أمام أعيننا المتعبة قليلًا، وعندها نعرف أنها الشمس الإلهية. إنها تشرق لمن شعر

بالتعب نتيجة جهد صادق مبرَر. وإذا لم نحتج إلى أن نُضبَط متلبسين برغبات غير شريفة، الأمر الذي يسبب التعاسة دائمًا، فماذا نسمع عندها؟ إنه تغريد العصافير! إنهم المغنون السعداء الصغار أصحاب الريش الملون الجميل في حديقتنا، هم الذين غنوا وضجوا هناك بلطف. والآن يتساءل المرء في نفسه: هل نحتاج نحن متدربي معهد بنيامنتا إلى حدائق أخرى، غير التي نخلقها بأنفسنا لأنفسنا؟ إننا سادة أثرياء، إذا تصرفنا بمرونة ولياقة. إنْ رغبتُ أنا مثلاً بامتلاك نقود، وكثيراً ما يحدث هذا للأسف، فإني أغرق عندئذ في هاوياتِ الاشتهاء الساخط والقانط، فأعاني وأتعطش وأشك في قابلية الإنقاذ. ثم أتأمل كراوس، فيغمرني ارتياح عميق رائع، هامس ومتدفق. وهذا هو نافورة التواضع المريح التي تبقبق وتَخِر صعودًا ونزولًا في حديقتنا، فأصبحُ عند ذلك سعيدًا ورائق المزاج ومُدوزنًا على الطيبة. وهناك مَن يفترض أني لا أحب كراوس؟ إذا كان أحدنا بطلًا، بمعنى لو أن أحدنا كان بطلًا، لحقق عملًا شجاعًا مُخاطرًا بحياته (هكذا ورد في كتابنا التعليمي)، ولسُمِح له بدخول الرواق المعمَّد بالمرمر والمزدانة جدرانه باللوحات، والمحجوب سريًا في خضرة حديقتنا، وهناك سوف يُقبِّله ثغرٌ. لكن كتابنا التعليمي لا يحدد نوع الثغر. ونحن على كل حال لسنا أبطالًا. ولأي غرض! أولًا تنقصنا الفرصة لنتصرف ببطولة، وثانيًا أنا لا أعرف يقينًا، ما إن كان شيلينسكي أو بيتر الطويل مستعدين لتقديم تضحيات. ثم إني على قناعة بأن حديقتنا مُنشأة جميلة، حتى من دون قبلات وأبطال ورواق أعمدة. إني أشعر بالبرد عند الكلام عن الأبطال. من الأفضل أن أسكت.

مؤخرًا سألت كراوس، عمّا إذا لم يكن يشعر بين الحين والآخر بشيء مثل الملل. نظر إلي بعينين لائمتين زاجرتين، فكر قليلًا ثم قال: «ملل؟ يبدو أنك لست حاد الذكاء، يا ياكوب. واسمح لي أن أقول لك، إنك ساذج بقدر طرحك أسئلة مُستَنكَرة. مَن الذي سيشعر بملل في الدنيا؟ ربما أنت. أما أنا، فلا، دعني أقول لك. أنا أحفظ هنا من الكتاب غيبًا. فما رأيك؟ هل يبقى لدي وقت للملل؟ يا لها من أسئلة حمقاء. عليّة القوم قد يشعرون بالملل، ربما، وليس كراوس، وأنت تشعر بملل، وإلا لما خطرت في بالك هذه الفكرة، ولما جئتَ إليّ هنا لتطرح عليّ مثل هذا السؤال. بإمكان الإنسان دائمًا، إن لم يكن نحو الخارج فنحو

الداخل على الأقل، أن يفعل شيئًا ما، يمكنه أن يتمتم، يا ياكوب. لاريب في أنك قد أردت عدة مرات أن تسخر مني، بسبب تمتمتي، ولكن اسمَعني وأخبرني، هل تعرف بماذا أتمتم؟ كلمات، يا عزيزي ياكوب. أنا أتمتم وأكرر كلمات. وهذا صحيٌّ، يمكنني أن أقول لك. اغرب عن وجهي أنت ومللك. الملل موجود في حياة الناس، الذين يتوقعون دائمًا أن ثمة ما يُفترض أن يأتيهم من الخارج، كي يُنفِّس عنهم ويشجعهم. حيثما يوجد مزاج معكر، وحيثما توجد أشواق، هناك يوجد ملل. اذهب هيا، لا تزعجني، دعني أتعلم، واذهب أنت لأداء مهمة ما. اشغل نفسك بشيء ما، وعندها ستتوقف حتمًا عن الملل. ورجاء، تجنب في المستقبل مثل هذه الأسئلة الحمقاء، التي تكاد تُخرِج المرء عن طوره». -فسألته: «هل انتهيت من الكلام يا كراوس؟» وضحكت. لكنه نظر إليّ بكل شفقة وحسب. لا، لا يمكن أبداً أن يشعر كراوس بالملل. كنت أعرف ذلك كفاية، إنما أردت أن أستفزه ثانية. ما أبشع هذا من جانبي، وما أشده خواءً. لابد لي من تحسين نفسي على نحو حاسم. ما أسوأ أن أريد طوال الوقت الضحك من كراوس وإزعاجه. ومع ذلك ما أشده إثارة. اتهاماته تبدو خفيفة الظل. وتحذيراته تحمل شيئًا من نفَسِ النبي إبراهيم.

يا لهول ما رأيتُني في الحلم قبل بضعة أيام. كنتُ في هذا الحلم قد صرت شخصًا رديئًا، بالغ السوء، وسبب ذلك، لم أشأ التصريح به لنفسي. كنت غليظًا من قمة رأسي إلى أصابع قدميّ، قطعةً مريعة من اللحم البشري، خرقاء لكن مهنْدمة جدًا. كنت بدينًا، وكانت أحوالي مرفهة جدًا على ما بدا. كانت الخواتم تبرق في أصابع يديَّ فاقدتي الشكل، وكنت أملك كرشًا يتدلى منه بارتخاءٍ ثقل قنطارٍ من شحم الوجاهة. وشعرت بالارتياح لقدرتي على توجيه الأوامر وإطلاق العنان لنزواتي. إلى جانبي انتصبت طاولة عامرة بكل لوازم نهمٍ لا يشبع للأكل والشراب من زجاجات النبيذ والليكور وأفخر تشكيلة من المازة الباردة. لم أكن بحاجة إلا لمد يدي، وهذا ماكنت أفعله من حين لآخر. على السكاكين والشُوَك التصقت دموع الأعداء الذين قضيت عليهم، ومع رنين الكؤوس كنت أسمع تأوهات كثير من الفقراء، إلا أن آثار الدموع لم تثرِ فيَّ إلا الضحك، في حين أن التأوهات القانطة كان لها وقع الموسيقى. كنت بحاجة إلى موسيقى المائدة

وحصلتُ عليها. يبدو أنني قد كسبت صفقات جيدة جدًا على حساب رخاء أناس آخرين، وقد سرني هذا في جميع اتجاهات أمعائي. وكم تلذذت بوعيي أني قد سحبت البساط من تحت أقدام بعض زملائي! ثم أمسكت الجرس وقرعته. دخل رجل مسن، عذرًا، زحف رجل مسن داخلًا، وكان الرجل هو حكمة الحياة، التي اقتربت زاحفة لتقبل جزمتي. فسمحتُ بذلك لهذا الكائن المذلول. وليفكر المرء بالتجربة النابعة من المقولة الأصيلة الطيّبة: لقد لعق قدميَّ. هذا أسميه أنا ثراء. ولأن الجرس خطرَ هكذا في بالي، قرعته ثانية، فقد أحسستُ بحكّة، لم أعد أدري أين تمامًا، تدعوني لتغييرٍ ذي مغزى، فظهرت فتاة مراهقة، لقمة شهية لي، أنا زير النساء. براءة طفولية، هكذا أسمَت نفسها، وبدأت تقبلني وهي تمسح بطرف نظرها السوط الموضوع بجانبي، فأنعشتني بصورة لا توصف. الخوف والفجور المبكر كانا يرفّان في عيني الطفلة الجميلتين كعيني غزال. وعندما اكتفيت قرعت الجرس مجددًا، فظهر: جِدُّ الحياة ورصانتها، شاب جميل ورشيق، لكنه فقير. كان أحد خدمي، وأمرته مقطبًا جبيني بأن يُدخل إليَّ ذاك الفلان، ما كان اسمه، صحيح، أخيراً تذكرت، الرغبة في العمل. وسرعان ما دخل الحماس، وأنا من باب تسلية النفس، فرقعت بالسوط في منتصف الوجه المنتظر بهدوء للإنسان الكامل، لرجل الشغل ذي البنيان الرائع، وكدت أموت ضحكًا. والطموح، الإنجاز الأصيل تقبَّل ذلك. وعندئذ طبعًا، وبحركة من يدي بكسلٍ واستعلاء، دعوته لشرب كأس من النبيذ، فما كان من البغل الغبي إلا أن شرب النبيذ. «اذهب وكن نشيطًا لصالحي»، قلت له، فذهب. ومن ثم دخلت الفضيلة باكية، وهي ذات هيئة أنثوية وجمالٍ طاغ لمن لم يتجمد من البرد بعد. أجلستها في حضني وعبثت بها. وبعد أن اغتصبت منها كنزها المصون، المثال، طردتها باستهزاء، ثم صفرتُ، فإذا بالرب نفسه يظهر. فصرخت: «ماذا؟ أنت أيضًا؟» واستيقظت غارقًا في عرقي، -- كم كنت فرِحًا لكون الأمر لا أكثر من حلم مزعج. يا إلهي، مازال أمامي أمل إذًا في أن أصير في المستقبل شيئًا ما، كما في الحلم، لكن كل شيء هناك يلامس حدود الجنون. لو حكيت هذا لـ كراوس فلا ريب في أنه سيبحلق فيَّ ويطيل.

إن الطريقة التي نعبرِّ بها عن احترامنا للآنسة، هي في واقع الأمر مضحكة. لكني

أنا مثلاً أحبذ الجانب الفكاهي جدًا، لأنه ينطوي حتمًا على سحر. في الساعة الثامنة يبدأ الدرس دائماً. لكننا نحن التلاميذ نجلس هناك قبل عشرة دقائق، في أماكننا، مشحونين بالتوتر والتوقع ونتطلع بثبات نحو الباب، الذي يُفترض أن تدخل منه الرئيسة. ولدينا تعليمات دقيقة حتى لهذا الصنف من إثبات الاحترام. فثمة ما يشبه القانون، ينص على واجب التنصت لمعرفة قرب وصولها، وبالتالي لتحديد لحظة دخولها بدقة. وعلينا نحن التلاميذ، بحماقة المراهقين، أن نهيئ أنفسنا طوال عشرة دقائق للقيام من أماكننا إلى وضعية الوقوف احترامًا. هناك في جميع هذه الشروط السخيفة والمثيرة للضحك في الحقيقة شيء من انتقاص الاحترام، ولكن لا شيء في هذا يتعلق بنا شخصيًا، بل يُفترض بكل هذا أن يتعلق بشرف معهد بنيامنتا، وهذا هو الصحيح على الأرجح، إذ هل للتلميذ شرف؟ هذا مستبعد. إن أعلى شرف بالنسبة لنا هو فرض الوصاية القانونية علينا وإرهاقنا. إنهاكنا بالتدريب أمر مشرِّف للتلاميذ، هذا واضح كعين الشمس. لكننا لا نتمرد أبدًا، بل لن يخطر هذا في بالنا قَط. وإذا جمعنا أفكارنا معًا، فسيكون الحاصل قليلاً جدًا. قد أكون أنا صاحب غالبية الأفكار، وهذا محتمل جدًا، لكني أحتقر أساسًا قدرتي على التفكير كلها. وأحبِّذ التجارب فقط، وهي عادة مستقلة كليًا عن كل تفكير أو مقارنة. وهكذا أثمِّن في نفسي مثلاً، أسلوبي في فتح الباب. ففي فتح الباب يكمن من الحياة السرية أكثر مما في سؤال. حسنًا، إنه يحفز على مساءلة كل شيء وعلى المقارنة والتذكر. من المؤكد أن على الإنسان أن يفكر أيضاً، بل وكثيراً أيضًا. لكن الخضوع أكثر رفعة بكثير من التفكير. إذا فكر الإنسان، فإنه يمانع ويعارض، وهذا كريه دائمًا ويخرِّب الأمور. لو يعرف المفكرون مدى التخريب الذي يسببونه. إن الذي لا يفكر عامدًا، يقوم بفعل ما، وهذا أكثر ضرورة. هناك عشرات آلاف الرؤوس في العالم تشتغل على نحو فائض. وهذا واضح وضوح الشمس. ومع كل هذا العلم والاستيعاب والتحليل يفقد كثير من البشر الشجاعة على مواجهة الحياة. مثلاً، إذا كان أحد تلاميذ معهد بنيامنتا لا يعرف أنه مؤدب، فهو مؤدب. أما إذا كان يعرف ذلك، فهذا يعني فقدانه كل تهذيبه وأناقته الداخلية اللاواعية، ويصبح قابلاً لارتكاب الأخطاء. أنا أحب نزول السلالم. يا لها من ثرثرة.

من الجميل أن يكون المرء ثريًا إلى حد ما، وأن يكون قد رتب علاقاته الدنيوية نوعًا ما. كنت في بيت أخي يوهَن، ولابد لي من القول بأن البيت فاجأني على نحو مريح. يكاد يحمل أثاثُه أصالة فون غوتن القديمة. يكفي أن الأرضية مفروشة بسجادة ناعمة بلون أزرق كابٍ أثارت إعجابي جدًا. الذوق الراقي يسود جميع الغرف، دون أن يكون فاقعًا، بل يعتمد فقط على خيارات محددة أنيقة. قطع الأثاث موزعة بأناقة، وهذا يوحي منذ لحظة الدخول إلى البيت بتحية ترحاب لطيفة. ثمة مرايا على الجدران، وهناك حتى مرآة عظيمة تمتد من الأرضية حتى السقف. القطع المفردة قديمة، وليست كذلك، أنيقة، وليست كذلك، غالية الثمن، وليست كذلك. هناك دفء وعناية في الغرف، يشعر بها الإنسان، وهذا مريح. ثمة إرادة حرة ومهتمة وراء تعليق المرايا وترتيب مكان السرير ذي المنحنيات الأنيقة. لن أكون أحد أفراد فون غوتن لو لم ألاحظ ذلك. كل شيء نظيف وممسوح الغبار، ومع ذلك ليس ثمة ما يلمع، بل يطالعك كل شيء بهدوء ومرح. ما من شيء يريد أن يخز العين، لكن الأشياء كلها في ترابطها معًا تترك في النفس انطباعًا متعدد المعاني ومحببًا. هناك قطة سوداء جميلة مستلقية على كرسي مترف داكن الحمرة، مثل تضمين الحمرةَ سواد ناعم باذخ. جميل جدًا. لو كنت رسامًا لرسمت لوحة للألفة البهية لصورة هذا الحيوان. استقبلني أخي بكل ود ووقفنا متقابلين مثل خبيرين ضليعين يعرفان ما يمكن للياقة أن تولده من سرور. دردشنا. ثم قفز إلينا كلب ضخم رشيق أبيض كالثلج بقفزات لطيفة توحي بالفرح، فربَّتُ على الحيوان طبعًا. كل شيء في بيت يوهَن جميل. لقد بحث عن أثاثِ وأغراض بيته بجهد وحب في محلات البضائع القديمة، إلى أن ولَّف أكثر ما يبعث على الارتياح والأناقة معًا. وعرف أن يخلق من الأشياء البسيطة تكاملًا في حدود التواضع، بحيث ترابطَ في بيته الصالح والمفيد مع الجميل والرشيق كما في لوحة فنية. بعد قليل من جلوسنا ظهرت امرأة شابة، قدمني يوهن إليها. ثم شربنا شايًا في جو مرح. ماءت القطة طالبة حليبًا، فيما أراد الكلب الضخم الجميل أن يأكل من البسكوت الموجود على تربيزة الشاي، فتمت تلبية رغبات الحيوانين. حل المساء وآن لي أن أعود إلى المعهد.

هنا في معهد بنيامنتا يتعلم التلاميذ الإحساس بالفقدان وتحمله، وهذا في رأيي مقدرة، تدريب، يبقى المرء دائمًا من دونه، مهما كان مهمًا، مثل طفل كبير، بكّاءً كثير الصراخ. نحن التلاميذ لا نأمل شيئًا، بل يُحظر علينا أن نحمل في صدورنا آمالًا حياتية، ورغم ذلك فإننا هادئون تمامًا ومرحون. من أين يتأتى هذا؟ هل نحس فوق رؤوسنا المُسرَّحة الشعر بشيء يحوِّم هناك كالملائكة الحارسة؟ أنا لا أجد تفسيراً لذلك. ربما كنا مرحين وغافلين نتيجة محدوديتنا. هذا أيضًا ممكن. ولكن هل يعني هذا أن مرحنا ونضارة قلوبنا أقل قيمة؟ هل نحن بصورة عامة أغبياء؟ إننا نرتجف. وسواء عن وعي أو بلا وعي نراعي إلى حد ما أمورًا كثيرة، فنتواجد مع الأرواح هنا وهناك، ونبث إحساساتنا مع الرياح في كل الاتجاهات الممكنة لنجمع خبرات وملاحظات. ثمة أمور كثيرة تواسينا، لأننا بصورة عامة دؤوبون جدًا ومنقبون مثابرون، ولأننا نُقَدِّر أنفسنا قليلًا. فمَن يقدِّر نفسه كثيراً لا يكون آمنًا أبدًا في وجه حالات تثبيط عزيمته والحط من شأنه، فالمعتد بنفسه يصطدم دائمًا بما يعادي الثقة بالنفس. ومع ذلك فإننا نحن التلاميذ لسنا مجردين من الكرامة أبدًا، إلا أنها كرامة قادرة جدًا على الحركة، ضئيلة، مطاوعة ولينة. ونحن بالمناسبة نلبسها ونخلعها حسب الضرورات. هل نحن نتاج حضارة أعلى، أم أننا أولاد الطبيعة؟ وهذا أيضًا لا جواب لدي عليه. لكني واثق من أمر واحد: أننا ننتظر! هذه هي قيمتنا. نعم، نحن ننتظر، وننصت في الوقت نفسه إلى الحياة في الخارج، إلى هذا المستوى، الذي يُسمى عالماً، إلى البحر بعواصفه. بالمناسبة التلميذ فوكس ترك المعهد. هذا يناسبني جدًا، لأني لم أعرف كيف يمكنني التعامل مع هذا الإنسان.

لقد تكلمت مع السيد بنيامنتا، وبالأحرى هو الذي كلمني. قال لي: «ياكوب، قل لي، ألا تجد أن الحياة التي تعيشها هنا مُجدِبة؟ ما رأيك؟ أرغب في أن أسمع رأيك. تكلم بصراحة». – فضَّلت أن أصمت، ولكن ليس عنادًا. فالعناد غادرني منذ مدة طويلة. لكنني صمتُّ في الواقع كما لو أردت أن أقول: «سيدي، اسمح لي بأن أصمت. فعلى مثل هذا السؤال لا يسعني أن أجيب إلا بشكل غير لائق». – نظر إلي السيد بنيامنتا بانتباه، واعتقدت أنه تفهم صمتي. أظنه فعل ذلك، لأنه ابتسم فجأة وقال: «أليس كذلك، ياكوب، أنت تستغرب نوعًا ما، كيف

نُمضي حياتنا هنا في المعهد بخمول، برتابة، بشرود ذهن؟ أهذا ما تشعر به؟ هل لفت نظرك هذا؟ لكني لا أريد توريطك في إجابات وقحة. لابد لي من أن أعترف لك بأمر، ياكوب. اسمع، أنا أعتبرك شابًا ذكيًا ومستقيمًا. والآن رجاءً، كن وقحًا. كما أجد نفسي مدفوعًا للاعتراف لك بأمر آخر: أنا ناظرك، أريد لك الخير. وثمة اعتراف ثالث: يخامرني شعور غريب، وفريد جدًا بأني أميل إليك، وعلى نحو لا يمكنني الآن السيطرة عليه. لكنك الآن ستواجهني بلا حياء، أليس كذلك ياكوب؟ أليس كذلك أيها الشاب، الآن، بعد أن كشفتُ لك نقطة ضعفي، سوف تجرؤ على معاملتي بلا تحفظات؟ هل ستعاند الآن؟ هل الأمر كذلك، قل لي، هل الأمر كذلك؟» – كلانا، الرجل الملتحي وأنا الشاب نظرنا في عيني بعضنا بعضا. كان الحال أشبه بمساجلة داخلية. كنت على وشك أن أفتح فمي لأقول شيئًا صاغرًا ما، لكني تمكنت من السيطرة على نفسي وصمت. وعندئذ لاحظت أن السيد الناظر ذا البنيان الجسمي العملاق كان يرتجف بخفوت شديد. ومنذ هذه اللحظة أصبح هناك ما يربطنا ببعضنا نحن الإثنين، لقد شعرت بذلك، نعم، لم أشعر به وحسب، بل عرفته. «السيد بنيامنتا يحترمني»، قلت لنفسي، ونتيجة هذا الإدراك الذي أنارني مثل لمعان البرق، وجدت أنه من اللائق، بل من الواجب أن أصمت. يا ويلي، لو أني نطقت بكلمة واحدة. كلمة واحدة كانت ستحط من شأني إلى تلميذ صغير لا أهمية له، في حين صعدتُ لتوي إلى قمة إنسانية لا تمت إلى ماهية التلميذ بأي صلة. أحسست بهذا كله بعمق، وانطلاقًا من إدراكي الآني تصرفت في تلك اللحظة بشكل صائب. ثم قال الناظر، الذي اقترب مني جدًا: «ثمة ما هو مهم في شخصيتك يا ياكوب». – سكت لحظة، شعرت فورًا بسببها. أراد بلا ريب أن يرى، كيف سأتصرف الآن. لاحظت ذلك، ولهذا فإني لم أشد أي عضلة في وجهي، بل نظرت أمامي بجمود، كالشارد، ثم عاودنا تبادل النظرات. فحدقت في عيني سيدي الناظر بحزم وقسوة. تصنعت برودًا ما، سطحية ما، في حين كان الأحب إلى قلبي أن أضحك في وجهه فرحًا. لكنني رأيت في الوقت نفسه أنه كان راضيًا عن موقفي، ثم قال أخيرًا: «يا بني، عد إلى عملك، اشغل نفسك بشيء ما. أو اذهب وتحدث مع كراوس. اذهب». – انحنيت عميقًا كالعادة تمامًا وانسحبت. في الردهة خارج المكتب بقيت واقفًا،

مثلما فعلت سابقًا وكالعادة تمامًا توقفت وتنصت عبر ثقب المفتاح، متوقعًا حركة ما في الداخل. لكن كل شيء بقي ساكنًا. فضحكت بخفوت وفرح، ضحكت بحماقة، ثم ذهبت إلى غرفة الدروس، حيث رأيت كراوس جالسًا في شبه عتمة، محاطًا على ما بدا بحزمة نور بني اللون. بقيت واقفًا طويلًا. وأطلت الوقوف فعليًا، لأن هناك شيئًا لم أستوعبه تمامًا. خيل إليّ وكأني في دارنا. لا، بل خيل إليّ وكأني لم أولد بعد، وإنما مازلت أسبح في شيء ما قبل الولادة. غمرتني حرارة مفاجئة وغامت الرؤية أمام عيني. توجهت إلى كراوس وقلت له: «اسمع يا كراوس، إني أميل إليك». – فزمجر قائلًا، ما هذا الكلام الغريب. انسحبت إلى غرفتي بسرعة. – والآن؟ هل بتنا أصدقاء؟ هل السيد بنيامنتا وأنا صديقان؟ في كل الأحوال ثمة علاقة تربطنا نحن الإثنين، ولكن ما نوعها؟ إني أمنع نفسي عن الرغبة في تفسيرها لنفسي. أريد أن أبقى خفيفًا ومرحًا. وعلى الأفكار أن تبتعد.

ما زلت حتى الآن بلا عمل. السيد بنيامنتا قال لي إنه يبذل جهده. قال ذلك بلهجة آمرة وفظة، ثم أضاف: «ما بك؟ نفدَ صبرك؟ كل شيء في وقته. انتظر!» –يروِّج التلاميذ فيما بينهم أن كراوس على الأرجح سيتخرج من المعهد قريبًا. يتخرج، يا له من تعبير مهني مضحك. هل سيغادر كراوس قريبًا؟ آمل أن تكون هذه مجرد شائعات فارغة، نوع من أخبار الإثارة في المعهد. وهناك بين التلاميذ أيضًا شيء شبيه بهراء الجرائد، يقطفون تفاصيله من الهواء والعدم. العوالم، حسب ملاحظتي، تتشابه في كل مكان. وبالمناسبة كنت مؤخرًا في زيارة لأخي يوهَن فون غوتن، وكانت لدى هذا الإنسان الجرأة ليأخذني معه في إحدى دعواته. جلست إلى مائدة أناس أغنياء، ولن أنسى طوال حياتي الطريقة التي تصرفت بها هناك. كنت أرتدي جاكيتًا طويلًا قديمًا لكنه رسمي، هذه الجاكيتات الطويلة تجعل المرء يبدو أكبر من عمره وتسبغ عليه أهمية. وهكذا تصرفت مثل رجل دخله السنوي لا أقل من عشرين ألف ماركًا. تحدثت مع أناس، كانوا سيديرون لي ظهورهم، فيما لو عرفوا من أكون. والنساء اللواتي كن ليحتقرنني، لو أخبرتهن بأنني تلميذ متدرب، ابتسمن لي وأومأن مشجعات. وأنا كنت مندهشًا من شهيتي للطعام. يا للارتياح الذي يشعر به المرء عند مد يده إلى الطعام على موائد الأثرياء. رأيت الجميع يفعلونها، فقلدتهم بإتقان. ما أحقر هذا. كم أشعر

بالخجل من إظهاري وجهًا طروبًا للأكل والشرب هناك في تلك الأوساط. لم ألحظ إلا القليل من عادات اللياقة الرفيعة. لكني لاحظت أن الكثيرين قد اعتبروني فتى خجولًا، في حين أني (من وجهة نظري) كدت أنفجر وقاحة. يوهَن يتصرف بين الناس بصورة جيدة. يمتلك خاصية إنسان له وزنه، وهو واع بذلك. سلوكه ينعكس بهجةً في العيون التي تراقبه. هل أبالغ في مديح يوهن؟ لا أبدًا، أنا لست مغرمًا بأخي، لكني أبذل جهدي كي أراه ككل وليس نصفه وحسب. لربما كان هذا هو الحب. ليكن. وفي المسرح كان الوضع جميلًا جدًا، لكني لا أريد الدخول في التفاصيل. بعد ذلك خلعت الجاكيت الرسمي الاحتفالي. آه ما أجمل أن يسير المرء في ثياب إنسان مرموق وأن يتجول فيها مرفرفًا. نعم، مرفرفًا! هذا هو المقصود. فالمرء يغرد ويرفرف مُحوِّمًا هناك في أوساط المثقفين. ثم تسللت عائدًا إلى المعهد وإلى بدلة التلاميذ. إني أحب التواجد هنا، أشعر بذلك، وربما لاحقًا، في المستقبل، سأحن على نحو غبي إلى معهد بنيامنتا، فيما بعد، بعد أن أصير شخصية مهمة، إلا أني لن أصير أبدًا شخصية مهمة، وها أنا أرتجف من ارتياح فريد، لقناعتي المسبقة بذلك. ذات يوم ستصيبني ضربة، ضربة مدمرة ماحقة، وحينذاك سينتهي كل شيء، كل هذه الاضطرابات، هذا الحنين، هذا الجهل، كل شيء، هذا الامتنان ونكران الجميل، هذه الأكاذيب، وخداع الذات، وزعم المعرفة، رغم عدم معرفة أي شيء، كل شيء سينتهي. لكني أرغب في أن أعيش، وبأي شكل من الأشكال.

وقع شيء غير مفهوم بالنسبة لي. ربما لم يكن له أي معنى. أنا لا أميل إلى ترك الألغاز والأسرار تسيطر علي. كنت جالسًا وقد هبط المساء، وحدي في غرفة الدروس. فجأة وقفت الآنسة بنيامنتا ورائي. لم أسمعها تدخل، فلابد أنها قد فتحت الباب بمنتهى الهدوء. سألتني ماذا أفعل هنا، ولكن بلهجة مَن لا يحتاج إلى إجابة. في هذه الحالة لا يقدم المرء طبعًا أي جواب. ثم وكأنها كانت متعبة وتحتاج إلى سند، وضعت يدها على كتفي. فأحسست عندئذ أني ملك لها، أيعني هذا أني تابعها؟ -- نعم، صرت ببساطة منتميًا إليها. أنا دائمًا أشعر بالارتياب حيال الأحاسيس. بتنا ننتمي إلى بعضنا بعضا. بفارق طبعًا. لكننا بتنا دفعة واحدة شديدي القرب من بعضنا البعض. مع وجود الفارق دائمًا طبعًا. أنا في

الواقع أكره أن أحس بفارق ضئيل مثل الآن، أو ألا أحس بفوارق إطلاقًا. بما أن الآنسة بنيامنتا وأنا كائنان مختلفان كليًا قلبًا وقالبًا، فإن الإحساس بهذا الانتماء شكَّل سعادة بالنسبة لي. يضاف إلى ذلك أني أكره أن أكذب على نفسي. فالأوسمة والامتيازات غير الحقيقية قولًا وفعلًا، أعتبرها أعدائي. إذن كان الفارق بيننا كبيراً. نعم، وما معنى هذا؟ ألن أتخطى فوارق معينة؟ وعندها قالت الآنسة فجأة: «تعال معي. انهض وتعال. أريد أن أريك شيئًا». – مشينا معًا. أمام أعيننا، أو على الأقل أمام عينيّ (وربما ليس أمام عينيها)، كان كل شيء مغلفًا بعتمة كتيمة. «هذه هي الغرف الداخلية»، فكرتُ، ولم أخطئ التقدير. هذا ما بدا، ومعلمتي العزيزة بدت مصممة على أن تريني عالماً، كان خافيًا حتى الآن، ولكن لابد لي من حبس أنفاسي.

كانت العتمة في أول الأمر مهيمنة كليًا، كما قلت. أمسكت الآنسة بيدي وقالت بلهجة ودودة: «انظر يا ياكوب، هكذا سوف تحيط بك العتمة، وثمة مَن سيأخذ بيدك ويقودك. وستكون فرِحًا بذلك، وستحس لأول مرة بامتنان عميق. لا تغتم. سيكون هنا ضياء أيضًا». – لم تكد تنهي قولها حتى سطع أمامنا نور أبيض باهر. وظهرت بوابة، فتابعنا المسير، هي في المقدمة وأنا وراءها مباشرة وعبرنا البوابة إلى داخل النور – النار. لم يسبق لي أبدًا أن رأيت ألقًا بشدة التعبير هذه، ولهذا كنتُ كالمخدَّر. قالت الآنسة مبتسمة وبود أكثر مما سبق: «هل يبهرك الضياء؟ ابذل جهدك لتتحمله. إنه يعني الفرح، وعلى المرء أن يعرف كيف يشعر به ويتحمله. وإذا شئتَ بإمكانك أن تفكر بأنه يعني سعادتك المستقبلية، ولكن انظر، ماذا يحدث هنا، إنه يتلاشى. الضياء يتشظى. هذا يعني يا ياكوب أنك لن تحظى بسعادة تستمر طويلًا. هل يؤلمك صدقي؟ لا تبتئس. لنتابع. علينا أن نسرع قليلًا، إذ ما زال أمامنا بعض الظواهر، التي لابد من أن تتجول عبرها وترتعش بها. قل لي ياكوب، هل تفهم أقوالي؟ ولكن اصمت. هنا لا يجوز لك الكلام. هل تعتقد أني ساحرة؟ لا، أنا لست ساحرة. لا ريب في أنني أتقن شيئًا قليلًا من السحر والإغواء. كل فتاة تتقن هذا. ولكن تعال الآن». – مع هذه الكلمات رفعت الفتاة المحترمة بابًا أرضيًا، وكان عليّ مساعدتها في ذلك، ونزلنا معًا، هي في المقدمة دائماً، إلى قبو عميق. وأخيراً عندما انتهت الدرجات

الحجرية، دسنا أرضًا رطبة وطرية. وخيّل إليّ وكأننا في مركز الكرة الأرضية، إلى هذا العمق والعزلة تصورت أننا وصلنا. خطونا على ممر طويل معتم، وقالت الآنسة بنيامنتا: «نحن الآن في أقبية ودهاليز الفقر والعوز، وبما أنك يا عزيزي ياكوب ستمضي على الأرجح كل حياتك فقيراً، فحاول منذ الآن رجاء، أن تُعوِّد نفسك قليلًا على الظلمة والرائحة القارسة الواخزة السائدة هنا. لا ترتعب وإياك أن تغضب. الرب موجود هنا أيضًا، إنه في كل مكان. على الإنسان أن يحب الضرورة ويتعلم أن يراعيها. قَبِّلْ أرض القبو الرطبة، أرجوك، قبِّلها. أنت بهذا تقدم الدليل الحسي على رضوخك الإرادي للصعوبة والبؤس اللذين سيسودان معظم حياتك كما يبدو». – أطعتها وارتميت على الأرض الباردة وقبلتها بكل اندفاع، وسرَتْ في جسمي أثناء ذلك قشعريرة لا توصف، باردة وساخنة في الوقت نفسه. تابعنا مسيرنا. آه، بدت لي دهاليز معاناة الفاقة والعوز الرهيب بلا نهاية، وربما كانت كذلك. كانت الثواني مسارات حيوات كاملة، واتخذت الدقائق طِوَل قرون مشحونة بالمعاناة. يكفي، أخيراً وصلنا إلى جدار كئيب، وقالت الآنسة: «اذهب إلى الجدار وداعبه وقبِّله. إنه حائط الأشجان. سيبقى منتصبًا دائمًا أمام ناظريك، وستكون غير حكيم إنْ كرهته. نعم، يجب على الإنسان أن يحاول تليين الجمود والتعنت. اذهب وجرب». – اقتربتُ من الحائط، كما باندفاع عاطفي، وارتميت على صدره، نعم، على الصدر الحجري وقلت له بعض الكلمات الطيبة، وشبه المازحة. لكنه بقي، كما كان متوقعًا، ثابتًا بلا حراك. مثلتُ كوميديا، من أجل خاطر معلمتي طبعًا، ومع ذلك، لم يكن ما قدمته سوى كوميديا. ورغم ذلك ابتسمنا كلانا، هي المعلمة الآمرة وأنا تلميذها غير الناضج. «تعال»، قالت «سنمنح نفسينا الآن قليلًا من الحرية وبعض الحركة». – ولمست الجدار بعصاها الصغيرة البيضاء، عصا الآمرة المعروفة، فاختفى القبو الشنيع كله، ووجدنا أنفسنا على مسرب أملس ضيق مفتوح من الجليد أو الزجاج. فتزلجنا فوقه وكأننا نرتدي أحذية تزلج عجيبة، ورقصنا في الوقت نفسه، لأن المسرب كان يعلو بنا ويهبط مثل موجة، كان ذلك رائعًا. لم يسبق لي أن رأيت شيئًا مثل هذا، فصحت فرحًا: «ما أروع هذا». – وفوقنا كانت النجوم تومض بصورة عجيبة في سماء زرقاء شاحبة وداكنة في الوقت نفسه، فيما يسطع القمر

بنوره الفضي فوق المتزلجين على الجليد. «هذه هي الحرية»، قالت المعلمة، «إنها أمر شتائي لا يُحتَمل طويلًا. ويجب على الإنسان أن يتحرك دائمًا، مثلما نفعل نحن الآن. في الحرية على المرء أن يرقص، فهي باردة وجميلة. ولكن إياك أن تقع في غرامها، لأن هذا سيحزنك جدًا لاحقًا، فالمرء لا يتواجد في مناطق الحرية إلا طوال لحظات، لا أكثر. ونحن قد تجاوزنا الحد الآن. انظر إلى المسرب الرائع الذي نتزلج عليه، كيف يذوب ببطء. الآن بوسعك رؤية الحرية وهي تموت، عندما تفتح عينيك. في مستقبل أيامك سيكون هذا المشهد الذي يقبض القلب من نصيبك مرات كثيرة». – لم تكد تنهي كلامها حتى هوينا من العلو الذي بلغناه والمرح، إلى شيء مريح ومألوف، كان مخدعًا صغيراً جدرانه مغلفة بورقٍ حاشدٍ بمشاهد شهوانية متنوعة. كان عمليًا مخدعًا للاسترخاء. لقد حلمت كثيراً بمخادع حقيقية، وها أنا ذا اليوم في أحدها. كانت الموسيقى تنساب على الجدران الملونة مثل هطل ثلج لطيف، كان بوسع المرء رؤيته يعزف مباشرة، والأنغام كانت تشابه ندف ثلج في مهب الريح. وقالت الآنسة: «هنا، يمكنك أن تستريح، حدد المدة لنفسك بنفسك». – وضحكنا كلانا لهذه الكلمات الملغزة، ورغم قلقٍ خفيف جدًا اعتراني، لم أتردد في مخدع الشهوة في أن أستلقي براحة على إحدى السجادات أمامي. ومن الأعلى نزلت إليّ سيجارة ذات نكهة نادرة واتخذت مكانها في فمي المفتوح لإراديًا ورحتُ أدخن. واقتربتْ رواية ترفرف حتى ما بين يدي، وتمكنتُ من القراءة فيها دونما إزعاج. «هذه لا تناسبك. لا تقرأ مثل هذه الكتب. انهض، ويُفضَّل أن تأتي معي. الاستعداد للتراخي يقود إلى الطيش والقسوة. أتسمع كيف ترعد بغضب وتدوي؟ إنها شظافة العيش. لقد استمتعتَ الآن بالراحة في المخدع والآن سيمطر عليك شظف العيش وستبللك الشكوك وأنواع القلق. على الإنسان أن يكون شجاعًا في خوض ما لا مفر منه». هذا ما قالته المعلمة، وما كادت تنهي كلامها، حتى سبحتُ في تيار من الشكوك أشبه بسائل لزج بغيض. ومن شدة التثبيط والإحباط لم أجرؤ أبدًا على التلفت حولي لرؤية ما إن كانت لا تزال بقربي. لا، المعلمة، التي أوجدت بالسحر كل هذه الظواهر والأحوال كانت قد اختفت. كنت أسبح وحيدًا كليًا. أردت أن أصرخ، لكن الماء كان يهدد بالتسرب إلى فمي. يا لشظافة العيش هذه. بكيت

وندمت بمرارة على الاستسلام لشهوة الراحة. وإذا بي فجأة جالس في معهد بنيامنتا، في غرفة الدروس المعتمة، والآنسة بنيامنتا لا تزال واقفة ورائي، تتلمس خديَّ، ولكن لا كمن يواسيني، وإنما كما لو كانت بحاجة إلى مواساة نفسها. «إنها تعيسة»، فكرت. وعندئذ جاء كراوس وشاخت وشيلينسكي عائدين من مشوار مشترك. بسرعة سحبت الفتاة يدها بعيدًا عني وذهبت إلى المطبخ، لتحضير طعام العشاء. هل كنت أحلم؟ ولكن لماذا أسأل نفسي، مادام وقت تناول طعام العشاء قد حان؟ ثمة أوقات أحب فيها الأكل بشهية كبيرة. وأستطيع أن أقضم أغبى أنواع الشرائح مثل صبي حرفةٍ جائع، وعندها أعيش كما في حكاية خرافية وليس كإنسان متحضر في عصر متحضر.

في بعض الأحيان تكون ساعات تدريبنا على الرقص والرياضة مسلية جدًا. فأن يكون من واجب المرء أن يُظهِر براعة ما، أمر يشارف على الخطر. وكم يمكن للمرء أن يعرِّض نفسه للإحراج. صحيح أننا نحن المتدربين لا نسخر من بعضنا بعضا. لا؟ بل نفعل. فيضحك المرء بأذنيه، إن لم يكن من الجائز له أن يضحك بفمه. وبعينيه أيضًا. العيون تحب جدًا أن تضحك. وأن توضعَ تعليمات للعينين، أمر قابل للإمكان، لكنه عسير جدًا. مثلًا، لا يجوز للمرء هنا أن يرمش بعينيه، لأنه تعبير عن سخرية، وجَب تجنبه. لكن المرء يرمش عفويًا أحيانًا. ولهذا فإن قمع الفعل الطبيعي كليًا غير ممكن. بل ممكن. ولكن حتى إنْ أقلع المرء كليًا عما هو طبيعي، فلابد دائمًا من بقاء نفحة، شيء ما، وهذه النفحة تعبر عن نفسها دائمًا. پيتر الطويل مثلًا يكاد بصعوبة بالغة الإقلاع عن طبيعته الشخصية جدًا. فأحيانًا إذا كان عليه أن يرقص ويثبِت قدرته على الحركة برشاقة، يصبح بكامله كقطعة خشب، والتخشب عند پيتر شيمة طبيعية، بمنزلة هبة ربانية. ويا إلهي كم يُضطر المرء إلى الضحك عندما يتخذ العمود شكل إنسان طويل، كم ينفجر ضحكًا ولكن بين جدران صدره. الضحكة هي النقيض الخالص لقطعة من خشب، إنها شيء مولِّعٌ، يولِّع أعواد ثقاب داخل الإنسان. وأعواد الثقاب تضحك بكتمان مثل الضحك المقموع. وأنا مولع بمنع نفسي عن القهقهة، لأن في هذا دغدغة رائعة: ألا تجيز لنفسك إفلات ما يريد أن ينفجر ضحكًا، ما لا يجوز أن يخرج إلى العلن، بل ما يجب أن يترسب داخلي، هذا هو ما أحبه. هذا المقموع

يصير بذلك أكثر إحراجًا، وفي الوقت نفسه أكثر قيمة. نعم، نعم، أعترف بأني أفضل أن أكون مقموعًا. في الواقع. لا، ليس دائمًا في الواقع. فليحل عني السيد «في الواقع» هذا. ما أردت قوله هو: ألاّ يجوز لك أن تفعل أمرًا ما، يعني، أن تفعله بشكل آخر على نحو مزدوج في مكان آخر. ما من شيء أسخف من الحصول على إذنٍ متعجل رخيص لا مبال. إني أستحق أن أختبر كل شيء، وعلى سبيل المثال، أن الضحكة بحاجة أيضًا إلى خبرة مكتسبة. فعندما أنفقع من الضحك داخليًا، عندما لا أعود أدري كيف سأتصرف بكل هذا البارود الذي يئز داخلي، عندها أعرف ما هو الضحك، وعندها أكون قد ضحكت بأكثر ما يُضحِك، عندها يتشكل لدي تصور متكامل عن ماهيته التي أذهلتني. وبناء على ذلك يجب عليّ أن أفترض وأن أحفظ كقناعة راسخة، أن التعليمات تطلي الوجود بالفضة، بل وحتى بالذهب، باختصار: تجعله مثيراً. فكما هو الأمر بشأن الضحك الممنوع المثير، فهو كذلك بالتأكيد بشأن كل الأشياء الأخرى تقريبًا، والرغبات كذلك. عدم جواز البكاء مثلاً، يؤدي إلى تعظيم البكاء. الاستغناء عن الحب، يعني بالتأكيد التمسك بالحب. إذا حُظِر عليَّ الحب، فإني سأحب عشرة أضعاف ما سبق. وكل الممنوعات تعيش بمئات الطرق والأشكال الأخرى، أي أنها تعيش، إنما بحيوية أكبر مما يُفترض أنه موت. وكما هو حال الأمور الصغيرة، كذلك هو بشأن الكبيرة. يقال إن الجميل هو المألوف، إلا أن المألوف ينطوي على الحقائق الصحيحة. ها قد عدت إلى الثرثرة ثانية، أليس كذلك؟ أعترف وبسرور أني أحب الثرثرة، إذ لابد من ملء السطور بشيء ما. ما أطيب، ما أطيب الفاكهة المحرمة.

ربما يحوم بين السيد بنيامنتا وبيني شيء مثل فاكهة محرمة مرئية من قبل الطرفين. لكننا كلانا لا نعبرِّ عن أنفسنا بوضوح، نجفل من اللغة الصريحة، وهو أمر مستساغ لا شك. أنا مثلاً أجد البشاشة في التعامل مُنفِّرة. أنا أتحدث بصورة عامة. وبعض الناس الذين يميلون إلي، أجدهم كريهين، ولا يسعني التأكيد بما يكفي على هذه الناحية هنا. من الطبيعي أني أنا أيضًا أميل إلى الطيبة والصدق في الآخرين. فمَن ذا الذي يمكن أن يكون جلفًا إلى درجة أن يبغض كليًا ثقةَ ودفء بعض الآخرين. لكنني أحذر دائمًا من الاقتراب، ولا أدري، لابد أني أمتلك

موهبة أن أقنع الآخر دون كلام بلا جدوى محاولات التقرب، وأنا، على الأقل، أجد من العسير أن أشمل الآخر بثقتي. ودفئي عزيز علي، عزيز جدًا، والذي يريد أن يحظى به، لابد من أن يكون حذرًا جدًا في تقرّبه، وهذا هو ما يبغيه السيد الناظر الآن. السيد بنيامنتا يريد، على ما يبدو أن يمتلك قلبي ويعقد صداقة معي. لكني أعامله مؤقتًا ببرود جليدي، ومَن يدري: يُحتَمل أني لا أريد منه أي شيء.

«أنت شاب فتي»، قال لي السيد الناظر، «أنت تعج بفرص الحياة. انتظر، هل كنتُ أريد أن أقول شيئاً ونسيته الآن؟ يجب أن تعرف يا ياكوب، أن لدي أشياء كثيرة لأقولها لك، ولكن يمكن للمرء أن ينسى الأجمل والأعمق، قبل أن يعد حتى الثلاثة. وأنت تبدو مثل الذاكرة الطازجة في حد ذاتها، أترى، في حين أن ذاكرتي قد هرمت. رأسي يا ياكوب موشك على الموت. عذرًا، لكلامي بهذا اللين والحميمية. لابد لي ببساطة من أن أضحك، إذ تجدني أطلب أن تعذرني، في حين كان بإمكاني أن أوسعك ضربًا، لو وجدتُ الأمر ضرورياً. ما أقسى الطريقة التي تنظر بها عيناك إليّ. لَهْ لَهْ، بينما يمكنني أن أخبطك بالجدار حتى تعمى وتطرش لبقية حياتك. إني لا أعرف نهائيًا كيف حصل وتنازلت أمامك عن سلطتي بصفتي ناظرك. لابد وأنك في سرك تسخر مني. دعني أقول لك بصوت منخفض: خذ حذرك. عليك أن تعرف، أن ثمة هيجانات تدهمني فيطيش صوابي قبل أن أسيطر على نفسي. ولكن لا تخف يا فتاي الصغير، فلا يمكن، كليًا، أن ألحِق بك أي أذى. ولكن قل لي، ماذا كنتُ أريد أن أسألك. قل، ألا تشعر بالخوف، ولو قليلاً؟ وأنت فتي ولديك آمال، والآن أو قريبًا سوف تبدأ عملاً يليق بك؟ أليس كذلك؟ تمامًا، هذا هو الموضوع. نعم، هذا هو الموضوع الذي يؤسفني، إذ ليكن في علمك، أني أشعر أحيانًا وكأنك أخي الصغير أو أحد أقربائي بالطبيعة، إلى هذا الحد أشعر بقرابتك لي، هكذا تتبدى لي حركاتك، لغتك، فمك، كل شيء، حسنًا، باختصار، هكذا تبدو لي. أنا ملك معزول. أتبتسم؟ إني أجد الأمر ببساطة ممتعًا، أتعرف، أنك الآن تحديدًا وأنا أتحدث عن العزل، عن الملك المجرد من عرشه، تُسرِّب أنت ابتسامة، ابتسامة شقية. أنت فهيم، ياكوب. ما أجمل الحديث معك. إنها لإثارة تقارب الدغدغة أن يتصرف المرء بحضورك على

نحو أبسط قليلًا وألين من المعتاد. نعم أنت تكاد تستفز المرء لارتكاب أخطاء جسيمة، للارتخاء، للتخلي عن الوقار. أتصدق، يكاد المرء يطالبك بكرم الأخلاق، وهذا يثير المرء وبقوة لأن يُفضي لك بشروحات جميلة واعترافات مريحة، مثلي أنا، سيدك، يا دودتي المسكينة الفتية، التي يمكنني إنْ رغبتُ أن أسحقها. أعطني يدك. هكذا. دعني أقول لك، إنك قد عرفت كيف تنتزع احترامي أثناء الحديث معك. إني أقدرك عاليًا، و- يجوز - لي -- أن أخبرك - بذلك. والآن لي رجاء عندك: هل لك أن تصبح صديقي، مؤنسي الصغير؟ أرجوك أن تقبل. إلا أني أريد أن أترك لك الوقت للتفكير بهذا كله، يمكنك الذهاب الآن. أرجوك أن تذهب، دعني لوحدي». - هكذا تحدث معي ناظري، الرجل الذي يمكنه، حسبما قال، أن يسحقني حالما يريد. وأنا توقفت الآن عن الانحناء له احترامًا، كيلا أؤلمه. ما الذي قصده بكلامه ذاك عن الملك المعزول؟ لن أشغل بالي بهذه المسألة، حسبما نصحني، بل سأستمر في الحفاظ على الشكليات. أي أن التمس الحذر في كل الأحوال. هل ذكر هيجانات؟ حسنًا، عليّ أن أقول إن هذا غير مريح أبدًا. وفي ما يتعلق بخبطي على الجدار، أعتقد بأني أستحق أكثر من ذلك بكثير. هل أخبرُ الآنسة بالأمر؟ لا، اللعنة، طبعًا لا. لدي ما يكفي من الشجاعة للتكتم على أمر غريب، وما يكفي من الفهم لأن أعالج وحدي أمرًا مريبًا. من المحتمل أن يكون السيد بنيامنتا مجنونًا. إنه على كل حال يشبه الأسد، فيما أشبه أنا الفأر. ما أظرف هذه الأحوال التي تسللت الآن إلى معهد بنيامنتا. لا يجوز إخبار أحد بأي شيء. القضية المكتومة تعتبر أحيانًا قضية رابحة. هذه كلها سخافات. انتهينا.

يا للتصورات التي تخطر في بالي أحيانًا! إنها تقترب من حدود اللامعقول بين الحين والآخر. على حين غرة، ودون أن أتمكن من تجنب الأمر، أصبحت قائد القوات الحربية حوالي سنة ١٤٠٠، لا، بعد ذلك بقليل، في مرحلة حملات إمارة ميلانو. كنت أنا والسادة ضباطي جالسين إلى المائدة. كان ذلك بعد معركة مظفرة، ومجدُنا كان سينتشر عبر أوروبا كلها خلال الأيام التالية. كنا نشرب النبيذ وكنا مرحين. لم نكن جالسين في غرفة، لا، بل في العراء، والشمس على وشك المغيب، وتحت شعاعها، الذي عنى في عينيَّ الهجوم والانتصار في المعركة، اقتيد أمامي كائن، رجل مسكين، ضُبطَ بجرم الخيانة. كان الرجل

المنكود يرتجف وهو ينظر إلى الأرض، عارفًا ألاّ حق له في النظر إلى القائد. نظرت إليه نظرة سريعة وخفيفة ثم حولت نظري إلى الجنود الذين اقتادوه إليّ، ثم كرست نفسي لكأس النبيذ الممتلئ الموضوع أمامي، وهذه الحركات الثلاث عنَت: «خذوه واشنقوه.» وفورًا أمسك به الجنود، لكن سيئ السمعة صرخ كالقانط، بل أكثر، كالممزق، كالممزق سلفًا بألف ميتة مريعة تحت التعذيب. خلال الحروب والمعارك التي ملأت حياتي، تعودَت أذناي على مختلف الأصوات، وعيناي على رؤية المشاهد الأشد قسوة وإيلامًا، لكن الغريب في الأمر، أني لم أتحمل هذا الصوت. فالتفتُ إلى اللعين، وأومأت بيدي لجنودي. «أطلقوا سراحه»، قلت لهم والكأس على شفتي، كي أقصر. فحدث شيء مؤثر وكريه. فالرجل الذي وهبتُه حياته، حياة المجرم – الخائن، ارتمى كالمجنون على قدميّ وقبَّل غبار حذائي. دفعته بعيدًا عني. تملكني قرف وهول. أثَّرَتْ فيّ السطوة التي مارستها، السلطة التي لعبت بها بحرية، مثلما تلعب الريح بأوراق الشجر، شعرت بحرج، لذلك ضحكت وأمرت الرجل بأن يغادر. كاد أن يفقد عقله. وانطلق من عينيه وفمه فرح حيواني، تعتع بالشكر مرتين وانسحب. أما نحن الآخرين فتابعنا حفلة السكر والمرح حتى الليل، وفي الصباح الباكر، ونحن لانزال جالسين إلى الطاولة، استقبلتُ بوقار ورفعة -كادتا تجعلاني أبتسم مرغمًا- مبعوث البابا. كنتُ البطل، سيد اليوم. بمزاجي ورضاي تعلق سلامُ نصف أوروبا. لكني عند مقابلة الدبلوماسيين لعبت دور الساذج الطيب، ولاءمني الدور، فعبرَّت عن تعبي ورغبتي في العودة إلى الوطن. سمحت بتجريدي من المزايا التي أكسبتني إياها الحرب. ولاحقًا طبعًا مُنِحتُ لقب الكونت، ثم تزوجت، وها أنا ذا قد هويتُ الآن إلى القاع، بحيث لا أخجل مطلقًا من أن أكون متدربًا صغيراً في معهد بنيامنتا وأن يكون رفاقي مثل كراوس وشاخت وشيلينسكي. على المرء أن يرميني عاريًا إلى الزقاق البارد، وعندها يُحتمَل أن أتصور، أني الرب كلّي القدرة. حان الوقت لترك القلم من يدي.

بالنسبة إلى تلاميذ ضئيلين ووضيعين مثلنا لا يوجد ما يُضْحِك. فالمُذَلّون يأخذون كل شيء على محمل الجد، ولكن على محمل الخفة أيضًا، التي تقارب الطيش. تتراءى لي حصة الرقص-السلوك القويم-الرياضة مثل الحياة العامة

الحقيقية المهمة، وعندئذ تتحول قاعة التدريب أمام عينيَّ، إلى غرفة سادة فخمة، إلى شارع يغص بالناس، إلى قصر بدهاليز قديمة وطويلة، إلى مكتبٍ في إدارة، إلى مجلس علماء، إلى صالون استقبال السيدات، حسب الحالة، إلى كل ما يمكن. ونحن علينا أن ندخل، نحيّي، ننحني تحيةً، نتكلم، نلبي أوامر أو ننفذ أعمالًا متخيلة، نخبرِ عن طلبات، ثم فجأة نجلس إلى المائدة ونأكل وفق أسلوب سكان العاصمة، والخدم يخدموننا. شاخت أو ربما كراوس نفسه يلعب دور سيدة أرستقراطية، وآخذ أنا على عاتقي مهمة التسرية عنها. ثم نصير كلنا فرسانًا، بما في ذلك پيتر الطويل، الذي يشعر بنفسه طوال الوقت كفارس، ثم نرقص. ننط حول القاعة، تلاحقنا نظرات المعلمة المبتسمة، وفجأة نركض لنسعف جريحًا، دهسته سيارة في الشارع. نمنح متسولين متخيلين مساعدة بسيطة، نكتب رسائل، نصرخ في وجوه خدمنا، نذهب لحضور اجتماع، نزور مناطق يتحدث سكانها بالفرنسية، نتدرب على التحية برفع القبعة، نتحدث عن الصيد والشؤون المالية والفن، نقبِّل بخضوع الأصابع الخمسة الجميلة الممدودة بتعطف لسيدات، نود الحفاظ على كسب رضاهن، نتسكع كمتنزهين، نرتشف القهوة، نأكل شرائح لحم الخنزير المنقوعة بنبيذ بورغوند، ننام في أسرَّة متخيلة، ونستيقظ في خيالنا أيضًا في الصباح الباكر من اليوم التالي ونقول: «يسعد صباحك يا سعادة القاضي»، نضرب بعضنا بعضا، لأن هذا كثيراً ما يحدث في الحياة أيضًا، ونفعل كل ما قد يقع في الحياة العملية. وإذا تعبنا من كل هذه السخافات، تنقر الآنسة بعصاها على حافة ما وتقول: «هيا يا فتيان، إلى الأمام، إلى العمل!» – وعندها نعود إلى العمل. نتحرك في أنحاء القاعة مثل الدبابير، ولا يسع المرء إيفاء هذا كله حقه من الوصف، وإذا أنهِكنا ثانية، تقول المعلمة: «ما هذا؟ أبهذه السرعة زهدتم في الحياة العامة؟ تنشَّطوا، تنشطوا. أروني كيف تكون الحياة. إنها سهلة، ولكن على المرء أن يكون يقظًا، وإلا داسته الحياة». – فننطلق ثانية بنشاط جديد. نسافر، فيما يرتكب خدمنا بعض الحماقات. نجلس في مكتبات عامة وندرس. نصير جنوداً، أغرارًا حقيقيين، وعلينا أن ننبطح ونطلق النار. ندخل إلى متاجر لنتبضع، ندخل إلى مسابح لنسبح، إلى كنائس لنصلي: «ربنا، لا تعرضنا للغواية». وفي اللحظة التالية

نجلس في بؤرة الإثم ونرتكب المعاصي. «توقفوا. يكفي لليوم»، تقول الأنسة من ثم، عندما ينتهي وقت الحصة. وعندئذ تنطفئ الحياة، والحلم الذي يسميه المرء حياة يتخذ وجهة أخرى. غالبًا أخرج أنا عند ذلك لأتمشى نحو نصف ساعة. ثمة فتاة أقابلها دائمًا في الحديقة العامة، حيث أجلس على مقعد. لها مظهر بائعة في متجر. وفي كل مرة تُميل رأسها نحوي وتتأملني طويلًا. تبدو متيَّمة جدًا، وتعتقدني بالمناسبة سيدًا براتب شهري. أبدو ملائمًا جدًا لمثل هذا التصور الصالح. لكنها مخطئة في اعتقادها، ولهذا فإني أتجاهلها.

بين الحين والآخر نمثل مسرحية، كوميدية عادة، تنقلب إلى هزلية تهريجية، إلى أن تعطينا المعلمة إشارة كي نتوقف:

الأم: «لا يمكنني أن أزوجك ابنتي. أنت فقير معدم».

الشاب: «الفقر ليس عيبًا».

الأم: «بلابلابلابلا، كلامٌ أمثال. ما الفُرص المتاحة أمامك؟».

الابنة: «ماما، مع كل الاحترام الذي أكنّه لك، أرجوك أن تُبدي احترامًا أكبر في كلامك مع الرجل الذي أحبه».

الأم: «اسكتي! سوف تشكريني ذات يوم، لأني عاملته بحزم ودون تساهل. – قل لي يا سيدي، في واقع الأمر أين درست؟».

الشاب: (وهو بولوني يؤدي شيلينسكي دوره) «سيدتي المحترمة، أنا متخرج من معهد بنيامنتا. اعذري الفخر الذي أقول به هذا».

الابنة: «ألا ترين يا ماما كيف يتصرف. يا له من سلوك راقٍ».

الأم: (بحزم) «دعيني من السلوك. السلوك الأرستقراطي انتهت صلاحيته من زمن بعيد. أنتَ يا سيدي، أخبرني من بعد إذنك، ماذا تعلمت هناك في معهد باغنامنتا؟».

الشاب: «عُذرًا، بنيامنتا، وليس باغنامنتا، اسم المعهد التعليمي. ماذا تعلمت؟

على كل حال، والحق يقال، إن ما تعلمته هناك كان قليلًا جدًا. لكن الأمر في هذه الأيام لم يعد يتوقف على تعلم الكثير، وعليك أنتِ بنفسكِ أن تعترفي بذلك».

الابنة: «أتسمعين يا أمي الحبيبة؟».

الأم: «اسكتي أنت أيتها العاقة، لا يكفينا أن نستمع لهذا الهراء، بل أن نأخذه على محمل الجد أيضًا. يا أيها الشاب الوسيم، ستقدم لي خدمة كبيرة، إذا انصرفت الآن، على ألا نراك من بعد ثانية».

الشاب: «كيف تجرئين على مخاطبتي بهذا الأسلوب؟ -- حسنًا، ليكن. وداعًا، أنا ذاهب» يغادر، إلخ، إلخ.

المضمون في مسرحياتنا القصيرة يتعلق دائمًا بالمعهد وتلاميذه. فالتلميذ يمر بمصائر متنوعة وذات ألوان مختلطة عشوائيًا، منها الجيد ومنها السيئ. فإما أن يفلح في العالم أو أن يخفق بشدة. وتأتي خاتمة المسرحية دائمًا كتمجيد وترميز للخادم المتواضع. الحظ يخدُم: هذه هي عبرة أدبنا الدرامي. في أثناء العروض اعتادت آنستنا على تمثيل دور المتفرجين. فتجلس في ما يشبه المقصورة وتتابع خشبة العرض، أي تنظر إلينا نحن الممثلين من خلال المنظار. أسوأ الممثلين بيننا هو كراوس. التمثيل لا يلائمه إطلاقًا. وأفضل الممثلين بلا جدال هو پيتر الطويل، وهاينريش لطيف أيضًا على الخشبة.

يخامرني الإحساس المهين، وكأن طعامي سيكون متوفرًا دائمًا في الحياة العملية. صحتي جيدة، وسوف أبقى كذلك، وسيكون هناك دائمًا مَن سيحتاجني لأمر ما. فلن أكون أبدًا عبئًا على دولتي أو على ناسي. والتفكير في ذلك، أي التفكير في أني سأكسب قوت يومي كإنسان صغير، كان سيؤلمني، لو كنتُ لا أزال ياكوب فون غونتن السابق، سليل ووريث سلالتي، لكنني صرت شيئًا مختلفًا تمامًا، صرت إنسانًا عاديًا، وكوني غدوتُ عاديًا، فبفضل آل بنيامنتا، وهذا يملؤني بطمأنينة لا توصف يقطر منها ندى الرضا الرائع. وأنا فخور بتبديلي أنواع الشرف. ما الذي دفعني في هذا العمر الغض إلى التراجع؟ ولكن هل هو تراجع؟ من

زاوية نظر محددة، نعم، إلا أنه بلا شك حفظ للنوع. بما أني سأكون ضائعًا ومفقودًا في مكان ما من الحياة، ربما سأبقى غوثن أكثر أصالة واعتزازًا، مما لو بقيت في الدار متمسكًا بشجرة العائلة لأتعفن ويجف قلبي وينكمش عقلي. حسنًا، ليكن ما سيكون، لقد اخترت طريقي وسأبقى عليه. وفي داخلي تَمور طاقة عجيبة للتعرف على الحياة من جذورها، ورغبة لا تنطفئ لتحريض الناس والأشياء لتبوح لي بمكنوناتها. وهنا يخطر في بالي السيد بنيامنتا. لكني أريد التفكير بشيء آخر، أي: عدم التفكير بأي شيء آخر.

عن طريق لطافة أخي يوهَن، تعرفت على مجموعة من الناس. منهم بعض الفنانين، الذين يبدون لطفاء. حسنًا، وماذا بوسع المرء أن يقول بعد تعارف عابر. في واقع الأمر يتشابه جدًا أولئك الذين يبذلون جهدهم لتحقيق نجاحٍ ما في الدنيا. لهم جميعهم الوجوه نفسها. ليس تمامًا، بل بالتأكيد. كلهم يتشابهون في لطفٍ معين يتدفق منهم بسرعة، وأعتقد أن هذا هو القلق الذي يحسون به. إنهم يتعاملون مع البشر والأشياء بعجلة كبيرة، وفقط كي يتمكنوا مباشرة من الانتهاء من الجديد الذي يبدو أنه يطالب بإيلائه الاهتمام أيضًا. إنهم لا يحتقرون أحدًا، هؤلاء الناس الطيبون، بل بالعكس، قد يحتقرون كل شيء، ولكن لا يجوز لهم إظهار ذلك، وفي حقيقة الأمر لخشيتهم فقط من أن يرتكبوا فجأة عملًا متهورًا. إن لطفهم نابع من متاعب دنياهم، وودهم من قلقهم. ثم إن كلًا منهم يريد أن يحترم نفسه. إنهم فرسان. ولا يبدو لهم أبدًا أنهم بخير تمامًا. مَن بمقدوره أن يحس أنه بخير، أهو الذي يولي أهمية لنوال شهادات احترام الدنيا وأوسمتها؟ ثم إني أعتقد بأن هؤلاء الناس، منذ أن باتوا أفرادًا اجتماعيين وحتمًا لم يعودا أبناء الطبيعة، فإنهم يشعرون باستمرار بوجود الخَلَف وراءهم. يشعر كل منهم بذاك المخيف الذي يريد دهسه ليتخطاه، وبذاك اللص الخفي، الذي يتسلل بموهبة جديدة ما، كي ينشر من حوله أضرارًا وإزدراءات من الأنواع كافة، ولهذا السبب يكون القادم البارز الجديد في هذه الأوساط، هو دائمًا المنتَظَر والمفضَل، والويل لكبار السن إذا تميز هذا القادم الجديد وأبرز نفسه بفكره وموهبته أو بكونه عبقرية طبيعية. إني على كل حال أبَسِّط كلامي جدًا، وثمة شيء آخر مختلف تمامًا يُضاف إلى ما سبق. إذ يسود في

أوساط التعليم المتقدم نوع من السأم الذي لا يخفى على العين ولا يصعب فهمه. ليس المقصود غطرسة النبلاء بالمنبت، لا، بل سأم حقيقي، واقعي، نابع من إحساس أكثر دقة وحيوية، سأم الإنسان السليم – المعلول. إنهم مثقفون جميعهم، ولكن هل يحترمون بعضهم بعضا؟ إنهم، إذا أمعنوا التفكير بصدق، راضون عن مكانتهم في الدنيا، ولكن هل هم مطمئنون؟ بالمناسبة، ثمة أثرياء بينهم. لكنني هنا لا أقصدهم، لأن المال الذي يملكه إنسان ما، يُلزِم بشروط مغايرة تمامًا، بشروط جديدة للحكم على هذا الإنسان. إلا أنهم جميعهم مهذبون، ومهمون في نوعهم، ولابد لي من أن أكون ممنونًا جدًا لأخي، الذي أتاح لي إمكانية التعرف على قطعة من الدنيا. في تلك الأوساط باتوا يحبون أن يدعوني بلقب فون غوتن الصغير، للتمييز عن يوهَن، الذي عمّدوه بلقب فون غوتن الكبير. هذا من باب المزاح، والدنيا تحب المزاح. أنا لا أحبه، لكن هذا كله لا أهمية له. فأنا أشعر بقلة ما يعنيني ما يُسميه الناس الدنيا، وعظمة وإثارة ما أسميه أنا العالم، ولكن بصمت وفي مخيلتي. لقد بذل أخي جهده ليعرفني على الناس، ومن واجبي أن أستفيد الكثير من هذا الأمر. وهو فعلًا كثير. كل شيء بالنسبة لي كثير، مهما صغر. أن يتعرف المرء على إنسانين بشكل كامل، هذا يحتاج إلى عمر الإنسان كله. ها أنا ذا أعود ثانية إلى مبادئ بنيامنتا الأساسية، وإلى الاختلاف الكبير بينها وبين ما يهم العالم. أريد أن أنام.

أنا لا أنسى أبدًا أني سليل أصل، أبدأ بالصعود من الدرجة الأدنى، ولكن دون أن أملك المؤهلات الضرورية لبلوغ الأعالي. وربما أملكها، فكل شيء ممكن. إلا أني لا أؤمن بساعات الاختيال التي أتوهم فيها نفسي سعيدًا ومتألقًا في الوقت نفسه. أنا لا أملك أيًا من فضائل متسلقي الأعالي. أحيانًا أكون وقحًا، ولكن انطلاقًا من نزوة. أما المتسلق الناجح فيتصف بوقاحة دائمة تتمظهر كتواضع، أو بإيماءة دائمة وقحة توحي بإبعاد الأهمية عن الذات. وهناك كثير من المتسلقين الذين يتمسكون ببلادة بما حققوه، وهذا هو امتيازهم. يمكنهم أن يتوتروا أيضًا وأن يكونوا أفظاظًا، متجهمين ضجرين «من كل شيء»، لكن السأم لا يحفر عميقًا في نفس المتسلق الحقيقي. المتسلقون أسياد، وأنا السليل ولا أدري ما سأكون غير ذلك، سوف أخدم سيدًا من هذا القبيل، ربما دَعيًّا قليلًا، سأخدمه بشرف

وإخلاص وموثوقية وثبات، دون تفكير، وبتجرد كامل عن المنافع الشخصية، فبهذه الطريقة فقط، أي بكل استقامة، سيمكنني بصورة عامة أن أخدم أحدًا ما، وألاحظ الآن أني أملك قواسم مشتركة مع كراوس، وأكاد أخجل من ذلك قليلًا. لا يمكن مطلقًا وأبدًا أن يحقق المرء شيئًا عظيمًا بأحاسيس كالتي أواجه أنا بها العالم، إلا إذا صرف المرء النظر عن العظمة البرّاقة، وأطلق صفة العظمة على ما هو رمادي بكليته، ساكن، قاسٍ ووضيع. نعم، سوف أخدم، وسأنفذ واجبات، لن يكون القيام بها أكثر من وميض، وسأكرر ذلك، وسوف أحمر خجلًا من السعادة إذا قال لي أحدهم شكراً ولو بصورة عابرة. هذا حماقة، لكنه الحقيقة الصريحة، ولستُ قادرًا على أن أكون حزينًا بسبب هذا الإدراك. يجب عليّ أن أعترف: أنا لا أشعر بحزن أبدًا، ولا أشعر مطلقًا بالعزلة، وهذا أيضًا حماقة، لأن المرء بالاندفاع العاطفي، بما يسميه صرخة، يحقق أفضل الصفقات وأكثرها تسلقًا وإراحة. لكنني ممنون للجهود المضنية وغير اللائقة لتحقيق المكانة والشرف بهذه الطريقة. في دار الوالدين كانت اللباقة تنضح من الجدران كلها. حسنًا، ابتغيت إيراد ذلك وحسب. في دارنا كان كل شيء راقيًا، ومضيئًا. كان البيت بما فيه يشبه ابتسامة أنيقة وطيبة. أمي راقية جدًا. لا بأس. إذن، سليلٌ ومحكوم عليه بأن يخدم وأن يلعب دور شخص من الفئة السادسة في سلم الحياة الدنيا. وهذا مناسب في تقديري، إذ كما قال يوهَن: «أصحاب السلطة، هؤلاء هم الموتى جوعًا». – لا أميل إلى تصديق مثل هذا الكلام. هل أنا بصورة عامة بحاجة إلى مواساة نفسي؟ أيمكن للمرء أن يواسي إنسانًا مثل ياكوب فون غونتن؟ مادامت أعضائي سليمة فهذا مستبعد.

عندما أريد، عندما آمر نفسي بذلك، أستطيع احترام كل شيء، حتى السلوك السيء، لكنه لابد من أن يفيض ذهبًا. السلوك السيئ يجب أن يُسقِط وراءه نقودًا من فئة العشرين ماركًا، عند ذلك سأنحني له، بل وحتى وراءه. والسيد بنيامنتا، بالمناسبة، له الرأي نفسه. يقول، إن من الخطأ أن نحتقر المال والمنفعة الآتية من يدين قبيحتين. على المتدرب في معهد بنيامنتا أن يحترم الغالبية، لا أن يحتقرها. – في موضوع آخر: رياضة الجمباز، شيء جميل. أحبها بشغف، وأنا بطبيعة الحال لاعب جمباز جيد. أن تعقد صداقة مع إنسان أصيل وتمارس معه

الجمباز، هما أمران من أجمل الأشياء في الدنيا. أن ترقص وتجد إنسانًا ينتزع منك احترامه، أمران في نظري متطابقان. أنا شغوف بتحريك العقول والأطراف، وخاصة بأرجحة الساقين، ما أجملها! وممارسة الجمباز تعد حماقة أيضًا، لأنها لا تؤدي إلى أي شيء. ولكن أيجب في واقع الأمر على كل ما أحبه وأفضله أن يؤدي إلى شيء؟ انصِت الآن! ما هذا؟ هناك مَن يناديني. عليّ أن أتوقف هنا.

«أما زلت تسعى بصدق، ياكوب؟» سألتني المعلمة، وكان ذلك عند مشارف المساء. كانت هناك حمرة في مكان ما، مثل انعكاس غروبٍ بديع الجمال. كنا واقفين عند باب غرفتي. كنت على وشك الدخول لأطلق العنان لأفكاري قليلًا. «يا آنسة بنيامنتا»، سألتها، «أتشكين في جدية واستقامة سعيي؟ هل أنا محتال، مشعوذ، في عينيك المبجلتين؟» – أعتقد أن هيئتي كانت تراجيدية جدًا عندما قلت ذلك. التفتت إليّ بوجهها الجميل وقالت: «لا أبدًا، بل نهائيًا. أنت فتى لطيف. أنت حاد الطبع، لكني أودك، أنت مستقيم وخلوق ولطيف. هل ارتحت الآن؟ ما رأيك؟ وأنت ترتب سريرك دائمًا كل صباح بشكل جميل، أليس كذلك؟ كما أنك منذ مدة لم تعد تطيع التعليمات كلها؟ أصحيح هذا أيضًا؟ أم لا؟ يا لك من إنسان مطيع، أنا مقتنعة بذلك. ولن يكتفي المرء بكيل المديح لك بأكوام تغمرك. ولن يكفي. تصوَّر دلاءً مليئة بكلمات المديح والتقريظ. بل ملء قدور وأباريق. سيحتاج المرء إلى جمعها بالمكنسة، كل هذه الكلمات الجميلة المرتبطة بمدح سلوكك. لا، ياكوب، اسمعني الآن بكل جدية، عليَّ أن أهمس شيئًا في أذنك. أتحب أن تسمعه، أم تفضل الآن الإيواء إلى حجرتك؟» – «تكلمي، آنستي المحترمة. إني أصغي»، قلتُ بتوقعٍ مليء بالخوف. لكنها تماسكت بسرعة وقالت: «أنا ذاهبة ياكوب، أنا ذاهبة، لستُ بخير. ولست قادرة على إخبارك. ربما في مرة قادمة. أليس كذلك؟ ربما غدًا، أو بعد ثمانية أيام. سيكون هناك دائمًا ما يكفي من الوقت لإخبارك. قل لي ياكوب، ألديّ بعض المعزة عندك؟ ألي مكانة ما في صدرك، في قلبك اليافع؟» – وقفت أمامي بشفتين مزمومتين بغضب. انحنيت بسرعة على يدها، التي تدلت على ثوبها بشجن لا يوصف، وطبعت قبلة عليها. كنت في منتهى السعادة لإجابتها بهذه الطريقة بكل ما كنت أحس به تجاهها. «هل تقدِّرني؟» سألتني بصوت حاد يكاد يختنق. فقلت: «كيف لك أن تشكي في

ذلك؟ ما أتعسني». – لكن سؤالها أغضبني، إلى درجة أني كنت على حافة البكاء. تركتُ يدها بخشونة واتخذت وقفة الاحترام. فذهبَت وهي تكاد ترجوني بنظرتها. –كيف تغير هنا كل شيء في الذي كان ذات يوم معهد بنيامنتا الاستبدادي! أخذ كل شيء ينكمش على نفسه، التمارين، الجرأة، التعليمات. هل أعيش في بيت الموتى أم في بيتٍ لأرضٍ للأفراح والمباهج؟ ثمة ما يجري، لكنني لا أستوعبه بعد.

تجرأت في حضور كراوس على تمرير ملاحظة تتعلق بآل بنيامنتا. قلت إني أشعر بتعكر يشوب البريق الذي كان لمعهد بنيامنتا. فما هو يا ترى؟ وهل يعرف كراوس شيئًا عن الموضوع؟ --انزعج وقال: «يا لك من كائن يحبل بتصورات سخيفة. ويا لها من أفكار. اشتغلْ شيئًا، افعلْ شيئًا، عندها لن يخطر في بالك ما يلفت الاهتمام. هذا الجاسوس، يريد تشمم الآراء والأفكار. اغرب عن وجهي، ما عدت أطيق رؤيتك إطلاقًا». –«من أين لك هذه الفظاظة». قلت له، لكني فضلت أن أتركه بسلام. –خلال النهار سنحت لي الفرصة للحديث مع الآنسة بنيامنتا عن كراوس. قالت لي: «نعم، كراوس ليس مثل بقية الناس. إنه يجلس في مكانه إلى أن يحتاجه المرء، وإذا طلبه المرء، يتحرك ويأتيه مسرعًا. أمثال هؤلاء الناس لا يوليهم المرء كبير أهمية. لا أحد يثني على كراوس أبدًا ونادرًا ما يعبر له عن شكره. كل ما يطالبه به المرء هو: افعل هذا، ومن ثم: افعل ذاك. ونادرًا ما يشعر المرء بأنه قد خُدِم وبجودة الخدمة المقدمة، وذلك نتيجة جودتها الكاملة. كراوس الشخص في حد ذاته ليس أحدًا، لكن الكادح فيه والذي يقدم الخدمات يمثل شيئًا ما، لكنه لا يُشعِرُك بنفسه أبدًا. أنتَ مثلًا ياكوب، يمدحك المرء، ويشعر بالسرور لإراحتك. بالنسبة إلى كراوس لا يشعر المرء بضرورة أن يخاطبه ولا أن يبدي ميلًا نحوه. أنت يا ياكوب مقارنة بـ كراوس تعد فاسقًا، لكنك الألطف. لن أجيبك بطريقة أخرى، لأنك لن تفهمها. ثم إن كراوس على وشك أن يغادرنا. هذا خسارة، ياكوب، ويا لها من خسارة. إذا لم يعد كراوس موجودًا، فمن بقي هنا؟ أنت، نعم. هذا في واقع الأمر حقيقي، وأنت الآن مستاء مني، أليس كذلك. نعم، أنت مستاء مني، لكوني معتكرة المزاج بسبب ذهاب كراوس. هل أنت غيران؟» – «طبعًا لا. أنا أيضًا أشعر بأسف عميق لأن كراوس سيغادرنا»،

أجبتها. وتعمدت الكلام بصيغة رسمية جدًا. فأنا أيضًا كنت أشعر بالألم، لكني وجدت أنه من الملائم الآن إظهار شيء من البرود. لاحقًا حاولت فتح حوار مع كراوس، لكنه تصرف برفض لا يُصدق. جلس إلى الطاولة عابسًا ولم يتبادل مع أحد منا حتى كلمة. إنه يشعر هو أيضاً بأن ثمة ما ليس بخير هنا، إلا أنه لا يعلق على ذلك بشيء، بل يقول ذلك لنفسه وحسب.

كثيراً ما ينتابني إحساس بهزيمة داخلية كبيرة. فأقف عندئذ في منتصف غرفة الدروس وأتحامق، أي أمارس عبث أطفال. فأضع على رأسي طاقية كراوس، أو كأسًا مليئًا بالماء. أو يكون هانس موجوداً، ومع هانس يمكن ممارسة اللعبة الجماعية بقذف القبعات على الرؤوس، بحيث تلبسها وتثبت. وكم كان كراوس يحتقرنا كل مرة بسبب ذلك. شاخت كان يجرب وظيفة، لكنه رجع بعد ثلاثة أيام، معتكر المزاج، مشحونًا بالغضب والحجج المؤلمة. ألم أقل منذ وقت مبكر، إن حال شاخت سيسوء جدًا في الحياة العملية؟ سوف يتململ ويبلعط دائمًا في وظائف وأعمال ومهمات، ولن يعجبه الحال في أي مكان. يقول هذه المرة، إنه كان مضطراً للقيام بأشغال شاقة، وحكى عن أشباه رؤساء في العمل ماكرين، شريرين، فاسدين، أخذوا على عاتقهم من لحظة بدئه الشغل أن يثقلوا عليه بواجبات غير لائقة بطريقة لئيمة، وأن يعذبوه بالشغل المجهد على نحو لا يطاق. أخ، كم أصدِّق شاخت، ومن أعماق قلبي، أقصد أني أعتبر ما رواه حقيقيًا تمامًا، لأن الدنيا تعامل معتلي الصحة والحساسين بخشونة غير مفهومة، وبتجبر وتذمر وقسوة. حسنًا، سيبقى شاخت هنا مؤقتًا. عند رجوعه سخرنا منه قليلًا، لابد من ذلك، فشاخت مازال يافعًا، ولا يجوز في نهاية المطاف، أن يكوِّن قناعة بوجود درجات خاصة له، ومزايا وإجراءات معينة ومراعاة. لقد جرّب الآن خيبته الأولى، وأنا واثق بأنه سيمر بعشرين خيبة، الواحدة تلو الأخرى. فالحياة بقوانينها الوحشية تعد بالنسبة إلى أشخاص معينين لا أكثر من سلسلة من الخذلانات والانطباعات السيئة المثيرة للرعب. والأشخاص من طينة شاخت ولِدوا ليعانوا نفوراً مستمراً. إنه يرغب في أن يُعترَف به ويُعامَل بودٍ، لكنه ليس قادراً على ذلك. فالقاسي والظالم يقابله بعشرة أضعاف القسوة والظلم، وهو بطبيعته يشعر بالقسوة والظلم بحدة أكبر. شاخت المسكين. إنه طفل ويُفترَض

به أن يسبح في الألحان وأن يتهادى على أشياء طرية طيبة بلا هموم. يُفترَض أن يُحاط بخريرٍ خفي وتغريد عصافير سري، كما يفترض أن يُحْمَل على غيوم شاحبة وناعمة في سماء مسائية إلى الملكوت: «أخ، ماذا بي؟» – يداه تصلحان للإيماءات الخفيفة وليس للشغل. من أمامه يُفترَض أن تهب النسائم، ومن ورائه أن تهمس أصوات حلوة ودودة. عيناه يُفترض أن تبقيا مغمضتين بسلام، وأن يغفو ثانية بكل هدوء، عندما يستيقظ صباحًا بين الوسائد الدافئة الشهوانية. بالنسبة إليه لا يوجد أساسًا عمل لائق، إذ إن أي عمل لمَن له جماله يعد غير لائق، مخالفًا للطبيعة، وغير ملائم. بالمقارنة معه أمثل أنا الخادمَ الحقيقي ذا العظم المتين. آه، سوف يُسحق شاخت، وذات يوم سينتهي في أحد المستشفيات، أو سيذبل في أحد سجوننا الحديثة وقد فسد روحًا وجسدًا. إنه يواري نفسه الآن في زوايا غرفة الدروس خجلًا وهو يرتجف مما سيواجه في المستقبل المجهول من أمور مقيتة. تنظر الآنسة إليه بقلق، لكنها مشغولة الآن جدًا بشأنها الشخصي الخاص، بحيث لا تستطيع أن تولي شاخت اهتمامًا كبيراً. وهي في واقع الأمر غير قادرة على مساعدته. ربما كان هذا من واجب وفي مقدور ربٍ ما، لكن الأرباب لا وجود لهم، إلا واحدًا لا غير، إلا أنه بالغُ الجلال ليلتفت للمساعدة. فأنْ يساعد ويخفف، أمرٌ لا يليق أبدًا بكلي القدرة، هذا ما أشعر به أنا على الأقل.

صارت الآنسة بنيامنتا تحادثني كل يوم ولو بضع كلمات، سواء في المطبخ أو أحيانًا في غرفة الدروس الهادئة جدًا لخوائها. وكراوس يتصرف كمن يتوقع البقاء عشر سنوات أخرى هنا في المعهد. يحفظ دروسه الجافة دونما تبرم، بل بتذمر في واقع الأمر، لكنه دائمًا كان يبدو متذمرًا، لذا لا أهمية لهذا الأمر. هذا الإنسان ليس قادرًا على العجلة ولا على نفاد الصبر. تكاد كلمة «انتظر» أن تكون مكتوبة بكل سموٍ على جبينه الهادئ. نعم، والآنسة قالت هذا أيضًا ذات مرة، قالت، إن كراوس يمتلك سموًا، وهذا صحيح، فعدم تبَدّي طبيعته ينطوي على عنصر سيادي غير مرئي. تجرأتُ بالأمس على أن أقول لمعلمتي: «إذا كنتُ ذات مرة، ولو مرة واحدة صغيرة وعابرة، قد وقفت تجاهك بثقة أكبر بنفسي، مما لو كنت مرتبكًا بمشاعر وقيود الاحترام الخالص، فسوف أكره نفسي وأطاردها

وأشنقها بالحبال وأسممها بأشد السموم سمّية وأحز رقبتي بالسكين، بغض النظر عن نوعها. لا، هذا مستحيل قطعًا يا آنسة. ليس بوسعي أبدًا أن أجرح شعورك. عيناك وحدهما تكفيان. كانتا بالنسبة إليّ دائمًا الأمرَ والطلبَ الجميل المقدس. لا، لا، أنا لا أكذب. ظهورك عند الباب! أنا لم أحس هنا قط بحاجة إلى سماء، ولا لقمر أو شمس أو نجوم. أنتِ، نعم أنت كنت الظاهرة الأسمى بالنسبة إليّ. إني أقول الحقيقة يا آنسة، ويجب أن أفترض، أنك تحسين بمدى بعد هذه الكلمات عن أي تملق. أنا أكره كل ما يتعلق بالرفاهية المستقبلية، وأبغض الحياة. نعم، نعم. ومع ذلك عليّ أنا أيضًا، مثل كراوس، مغادرة المعهد إلى الحياة التي تستحق الكراهية. لقد كنتِ بالنسبة لي الصحة الجسدية. إذا كنت أقرأ في كتاب، فقد كنتِ أنتِ، وليس الكتاب، أنت كنتِ الكتاب. نعم، نعم. كثيراً ما تصرفتُ بشقاوة. وفي بعض الأحيان اضطررتِ إلى تحذيري من الكبرياء، الذي أراد افتراسي ودفني تحت أنقاض تصورات غير لائقة. كم غرقَ بعيدًا وبلمح البصر. وكم كنتُ أصغي إلى ما تقوله الآنسة بنيامنتا. أتبتسمين؟ نعم، هذه الابتسامة، كانت دائمًا دافعًا لي باتجاه الخير والشجاعة والحقيقة. وكم كنتِ طيبة تجاهي دائمًا. بل بالغة الطيبة تجاهي أنا العنيد. ومع نظرتك إليّ كانت تتساقط أخطائي الكثيرة، تتساقط عند قدميك متوسلة منك الصفح. لا، أنا لا أريد الخروج إلى الحياة، إلى الدنيا. أنا أحتقر كل ما هو مستقبلي. عندما خطوتِ داخلة إلى الغرفة، كنتُ فرِحًا، ثم كنتُ دائمًا أشتم الغباء الكامن في رأسي. عليَّ أن أعترف، نعم، تصوري كم مرة أردتُ أن أنتزع منك الكرامة والعظمة، لكني، في كل قدرات عقلي المحفزة، لم أجد حتى كلمة واحدة من كلمات القذف والذم للإساءة بها إليك قليلًا. فكانت العقوبة دائمًا الندم والقلق. نعم، دائمًا، يا أنسة، كان يتحتم عليَّ أن أوقرك. هل أنت مستاءة من كلامي بهذه الطريقة؟ أنا، أنا فرح لأني أتكلم بهذه الطريقة». – نظرت إليّ رامشة وابتسمت. تهكمت قليلًا، لكنها كانت راضية تمامًا. يضاف إلى ذلك، وهذا ما لاحظتُه، أن أفكارها كانت مشغولة بشيء بعيد. كانت وكأنها شاردة، وهذا فقط هو ما شجعني على التحدث إليها بهذه الطريقة. وسأتوخى ألا أكررها ثانية.

الأمر لا يعنيني بالمرة، طبعًا، ولكن لفت نظري عدم انتساب تلاميذ جدد إلى

معهد بنيامنتا. فهل يعود سبب ذلك إلى انكماش سمعة السيد بنيامنتا بصفته مربيًا، والتي كان يتمتع بها في المحيط، أم أنها قد تلاشت؟ سيكون الأمر محزنًا. ولكن لربما كان الأمر كله مجرد إحساس بالغ التوتر. لقد صرت هنا عصبيًا إلى حد ما، إذا كان من الجائز إطلاق هذا الوصف على توتر معين وفي الوقت نفسه على كَلَل قدرات الملاحظة. فكل شيء هنا بالغ الطراوة، كما لو أن المرء واقف في الهواء وليس على أرض صلبة. أضف إلى ذلك هذه الحالة المستمرة من أن يكون المرء متماسكًا وواعيًا، ربما كان هذا أيضًا أحد الأسباب. هذا محتمل. هنا يكون المرء دائمًا في حالة توقع شيء ما، وهذا في نهاية المطاف يُضعِف النفس. وفوق ذلك يمنع المرء نفسه بحزم عن الإنصات والانتظار، لأنه غير مسموح بهما. حسنًا، وهذا أيضًا يستهلك من طاقة المرء. كثيراً ما تقف الآنسة عند النافذة وتطيل النظر إلى الخارج، وكأنها باتت تعيش في مكان آخر. نعم، هذا هو ما ليس صحيًا تمامًا ولا طبيعيًا، على صعيد ما يُحاك هنا: نحن جميعنا، الإدارة والتلاميذ نكاد نعيش في مكان آخر. يبدو الأمر وكأننا نتنفس، نأكل، ننام، نستيقظ، نلقي ونتلقى الدروس ونستمتع هنا مؤقتًا فحسب. ثمة ما يشبه طاقة دافعة بلا هوادة هنا تصفق الأجنحةَ ببعضها بصوت مسموع. هل ننصت كلنا هنا للآتي لاحقًا؟ مهما كان هذا الآتي لاحقًا؟ وهذا أيضًا ممكن. وماذا بعد، إذا غادرنا كلنا، نحن المتدربين الحاليين، ولم يأتِ بعدنا تلاميذ جدد؟ ماذا سيحصل؟ هل سيكون آل بنيامنتا فقراء ومهجورين؟ لا. أبدًا، أبدًا. لا يجوز أن يحدث هذا. ورغم ذلك لابد من حدوثه. لابد؟

أن تكون مفعمًا بالحيوية يعني، ألا تفكر طويلًا، بل أن تدخل بسرعة وهدوء في ما يجب القيام به. أن تبتل بتدفق أمطار الجهد المبذول، أن تصير قاسيًا وقويًا من صدمات واحتكاكاتِ ما تطالب به الضرورة. إني أكره مثل هذه الأقوال الذكية. أردت في الواقع التفكير بشيء آخر تمامًا. صحيح، وجدته، وهو يتعلق بالسيد بنيامنتا. كنت عنده ثانية في مكتبه. إني أعابثه دائمًا بشأن الوظيفة، التي يُفترض أن أحصل عليها قريبًا. وهكذا سألته هذه المرة أيضاً، عما إذا كان بإمكاني توقع الوظيفة قريبًا. أراد أن يُفلت العنان لغضبه، وما زال يريد ذلك حتى الآن، لكني بقيت كعادتي طيلة الوقت جريئًا عندما أستفزه. وطرحت سؤالي عليه بصوت

عالٍ وحاد وبوقاحة. ارتبك الناظر بشدة، وبدأ حتى بحك المنطقة وراء أذنيه الكبيرتين. من الطبيعي أنه لا يملك ما يسميه الناس أذنين كبيرتين، أذناه نسبيًا ليستا كبيرتين أبدًا، لكن كل ما في الرجل ضخم، وبالتالي أذناه أيضًا. ثم اقترب مني أخيراً، ضحك في وجهي بطيبة مستغربة وقال: «تريد أن تخرج لتشتغل، ياكوب؟ أما أنا فأقول لك، من الأفضل أن تبقى بعد هنا. فالوضع هنا بالنسبة لك ولأمثالك مناسب جدًا. أم لا؟ أنت عليك بالتباطؤ قليلًا. بل أرغب في أن أنصحك بأن تصبح نوعًا ما خاملًا، نَسَّاء، بطيء التفكير. إذ، انتبه، إن ما يسميه الناس رذائل تلعب دورًا كبيراً جدًا في وجود الإنسان، إنها مهمة جدًا، وأكاد أقول إنها ضرورية. لولا وجود الرذائل والأخطاء، ستفتقد الدنيا إلى الدفء والإثارة والغنى. نصف الدنيا وربما النصف الأجمل أساسًا قد يندثر مع المسرات ونقاط الضعف. لا، كن أنت خاملًا. أرجو أن تفهمني على نحو صحيح، كن كما أنت وكما صرتَ هنا، ولكن العب رجاءً دور المتباطئ. هلا فعلت؟ هل توافق؟ أنا سيسعدني أن أراك غارقًا قليلًا في تخيلاتك. أمِل رأسك، امتلِئ بالأفكار، اجعل نظرتك معكرة، أليس كذلك؟ إذ إنك تبدو لي محشوًا بالإرادة أكثر من اللازم، ممتلئًا بخصال الشخصية. كما أنك متكبر، ياكوب! كيف تفكر فيما يخص مستقبلك؟ أتعتقد أنك في الدنيا المفتوحة قادر على تحقيق شيء عظيم؟ أو يجب عليك ذلك؟ ألديك نوايا جادة باتجاه شيء مهم؟ تكاد للأسف أن تترك عندي هذا الانطباع العنيف نوعًا ما. أم تُراك تريد لربما، على سبيل العناد، أن تبقى إنسانًا صغيراً جدًا؟ وأنا أطالبك بهذا أيضًا. أنت بطبيعتك ميال للاحتفالية والفخامة، للتشدد، لتحقيق الظفر. إلا أن هذا كله بلا أهمية، فأنت تبقى ياكوب. لن أعطيك وظيفة، ولن أدبِّر لك شيئًا من هذا القبيل. أتعرف، نفسي تطلب الاحتفاظ بك. ما أكاد أملكك يا فتى، حتى تريد الانطلاق مغادراً؟ هذا غير وارد. خضْ في الملل هنا بقدر ما تستطيع. آه، يا قاهر الدنيا الصغير، في الدنيا، هناك في الدنيا، في العمل، في السعي، في النوال، هناك ستتثاءب في وجهك بحارٌ من الملل، والقفر، والجدب والعزلة. ابق هنا. ابق تواقًا فترة أخرى. لا يمكنك تصور مدى السعادة الروحية والعظمة الكامنتين في التوق، أي في الانتظار. انتظر إذًا. دعه يدفعك داخليًا على أية حال. ولكن ليس بشدة. اسمع،

ذهابك سيؤلمني، سيسبب لي جرحًا، جرحًا لا شفاء له، سيقتلني تقريبًا. يقتل؟ إني أرجوك، أن تسخر مني، وبشدة. اسخر مني بلا أي خجل، ياكوب. أنا أسمح لك بذلك، بالأحرى قل أنت، ما عليّ أنا في المستقبل أن أجيز لك وما لا أجيز؟ أنا الذي أقنعك للتو بأني أكاد أكون تابعًا لك؟ الأمر يجعلني أقشعر وأشمئز ويبهجني في الوقت نفسه، ياكوب، هذا الذي أقْدمت عليه. لكنني لأول مرة أحب إنسانًا. إلا أنك لن تستوعب ذلك. اذهب. فوراً. عليك بمغادرة المكتب. اعلمْ يا قليل التربية، أني ما زلت قادرًا على العقاب. فاحذر». – التقطتُ لحظة التحول، لقد تملكه الغضب ثانية. وبسرعة تواريت عن عينيه المكفهرتين اللتين كانتا تخترقاني. هاتان عينان حقًا، عينا السيد الناظر. لابد من أن أشير هنا، إلى أني أملك رشاقة لا تُصدَّق، عند ضرورة الهروب من مكان ما. لقد طرت حرفيًا إلى الدهليز المجاور، بل في طرفة عين، عندما قال لي الناظر: «فاحذر». لابد حتمًا من أن يحذره المرء أحيانًا. وكنت سأعتبر الأمر غير لائق، لو أني لم أعرف الخوف، وإلا لما امتلكت الشجاعة، التي ليست سوى التغلب على الخوف. وفي الدهليز عاودت التنصت من ثقب المفتاح، وكان كل شيء ساكنًا هادئًا. وبمنتهى الولدنة كأي تلميذ آخر مددت لساني نكاية، ثم غلبني الضحك. وأظن أني لم أضحك سابقًا أبدًا على هذا النحو، بصوت خافت طبعًا. ربما كان الضحكَ المكتومَ الأكثر أصالة. وعندما أضحك بهذا الشكل، أشعر أني مطلق الحرية، لا شيء فوقي. وعندئذ أصبح شيئًا لا يجارى على صعيد الإحاطة بالوضع والسيطرة عليه. في مثل تلك اللحظات أكون ببساطة عظيمًا.

نعم، هذا هو الحال: مازلت في معهد بنيامنتا، مازال عليَّ خشية الأنظمة المتبعة هنا، مازالت هناك دروس تُعطى وأسئلة تُطرح ويُجاب عليها، مازلنا ننتفض واقفين جميعنا عند تلقي الأمر، مازال كراوس يقرع باب غرفتي صباحًا بأصبعه المعقوف بغضب ومع ندائه المزعج: «انهض ياكوب»، مازلنا نحن التلاميذ نقول: «نهارك سعيد، يا آنسة»، عند ظهورها، و«ليلة سعيدة، يا آنسة»، عندما تنسحب مساء. مازلنا عالقين بين المخالب الحديدية للتعليمات العديدة، وما زلنا نجتر دائمًا تكرارات تعليمية رتيبة. وأنا بالمناسبة قد دخلت أخيراً إلى المخادع الداخلية الحقيقية، ولابد لي من أن أقول إنه ما من مخادع هناك. هناك

غرفتان، لكن هاتين الغرفتين لا تشبهان المخادع في أي شيء. إنهما مفروشتان بأصدق تعبير عن التوفير المعتاد، وليس فيهما ما هو سري أو غامض إطلاقًا. غريب. كيف تشكلت في ذهني أصلًا هذه الفكرة المجنونة بأن آل بنيامنتا يعيشون في مخادع؟ أم أني حلمت بذلك وانتهى الحلم الآن؟ على كل حال هناك أسماك ذهبية، وعليّ مع كراوس في موعد منتظم أن نفرغ وننظف الحوض الذي تسبح وتعيش فيه السمكات ونملأه بماء نظيف. ولكن هل في هذا ما هو سحري ولو من بعيد؟ الأسماك الذهبية يمكن أن توجد في بيت أي موظف متوسط في بروسيا، وبيوت عائلات الموظفين البروسية ليس فيها ما هو غامض أو شاذ. رائع! وأنا كنت على قناعة راسخة بوجود المخادع الداخلية. اعتقدت بأن وراء الباب، الذي تدخل منه الآنسة وتخرج دائمًا، لابد من وجود كثير من الغرف الباذخة والحجرات العادية. ورأيت في مخيلتي وراء هذا الباب البسيط سلالم حلزونية ذات التواءات رشيقة، وسلالم أخرى حجرية عريضة مغطاة بالسجاد. وكانت هناك مكتبة عتيقة جدًا، إضافة إلى دهاليز طويلة منشرحة مغطاة بالبسط وممتدة من طرف «العمارة» إلى طرفها الآخر. سيمكنني قريبًا أن أؤسس بكل أفكاري وحماقاتي شركة مساهمة مغفلة لترويج التخيلات الجميلة ولكن غير المأمونة. يبدو لي أن رأس المال متوفر ولن تنقصنا الاستثمارات، ومشترو مثل هذه الأسهم يأتون من كل مكان، حيث لم تمت بعد فكرة الإيمان بالجمال تمامًا. يا إلهي كم تخيلت. حديقة عامة طبعًا، فبدون حديقة لا يمكنني حتى أن أوجد. مع كنيسة، ولكن الغريب أنها لم تكن أقرب إلى الأطلال بإيحاء رومانسي، بل كنيسة بروتستانتية صغيرة مجدَّدة على نحو نظيف. كان الواعظ جالسًا إلى طاولة الفطور. وماذا أيضًا؟ سادة يتناولون العشاء، يقيمون نزهات صيد. هناك رقص في قاعة الفرسان، حيث عُلقت على جدرانها الخشبية الداكنة صور أسلاف السلالة. أي سلالة؟ إني أتلعثم بالاسم، لأني في الحقيقة لا أستطيع ذكره. حسنًا، إني نادم بعمق لكوني قد حلمت وتخيلت مثل هذه الأمور. رأيت الثلج يتطاير أيضًا، رأيته في فناء القصر. كانت الندف كبيرة ومبلولة، وكان الوقت في الصباح الباكر، كان الجو معتمًا دائمًا، في البكور الشتوي. أخ، ورأيت شيئًا جميلًا جدًا، قاعة، نعم، رأيت قاعة. منظر لطيف! ثلاث عجائز نبيلات جالسات حول

نار المدفأة التي تضحك وتطقطق، تحبكن الصوف. يا له من خيال، ألاّ أرى أبعد من هناك، حيث الحبك والحياكة. لكن هذا بالتحديد هو ما فتنني. لو كان لي أعداء لقالوا إنها ظاهرة مرَضية، وسيظنون أن لديهم سببًا ليبغضوني مع شغل الحبك اللطيف. ثم كانت هناك مأدبة عشاء رائعة، حيث كانت الشموع تنشر نورها من شمعدانات فضية. كان مرح السُفرة يلمع ويشعشع ويدردش. وبدا لي ذلك كجمال حقيقي. ونساء، وأي نساء. إحداهن كانت تشبه أميرة حقيقية، وقد كانت كذلك. كان هناك رجل إنجليزي أيضًا. كان حفيف الأثواب النسائية لافتًا، والصدور، الصدور المكشوفة تتماوج صعودًا وهبوطًا! وكانت العطور تتغلغل مثل الأفاعي عبر غرفة الطعام. وقد اتحدت الفخامة مع محاسن التهذيب، واللهجة الطيبة مع المتعة، والفرح مع الرقي، والأناقة كانت تشي بنبل الأصل. ثم انمحى هذا كله، وحضر شيء مغاير، جديد. نعم، المخادع الداخلية، كانت تحيا، لكنها سُرِقت مني الآن. الواقع المتواضع: كم يمكن أحيانًا أن يكون محتالاً. يسرق أمورًا ولا يعرف لاحقًا ما يفعل بها. ربما لأن السرقة سلّته مرة على ما يبدو، بأن ينشر الحزن. لكن الحزن على أية حال محبب إليّ، ويستحق التقدير جدًا. فهو يعلِّم.

هاينريش وشيلينسكي غادرا المعهد. تصافحنا وتبادلنا كلمة: «وداعًا»، وذهبا. والأرجح أننا لن نلتقي ثانية. ما أقصر الوداعات. يريد المرء أن يقول شيئًا، لكنه في تلك اللحظة تحديدًا ينسى الكلمة المناسبة، وهكذا فإنه لا يقول شيئًا أو يقول سخافة ما. ما أفظع الوداع للطرفين. في مثل هذه اللحظات ترتجّ حياة الإنسان، وبحيويةٍ يشعر المرء بأنه لا شيء. الوداعات السريعة غير مستحبة، والطويلة لا تُحتمَل. فماذا يفعل المرء؟ حسنًا، عندئذ يقول المرء شيئًا ساذجًا. – الآنسة بنيامنتا قالت لي شيئًا في غاية الغرابة: «ياكوب، أنا أحتضر. لا ترتعب. دعني أتحدث إليكَ بكل هدوء. قل لي، لماذا صرتَ أنت تحديدًا موضع ثقتي؟ منذ البداية، منذ أن دخلتَ إلى هنا اعتبرتك لطيفًا ورقيقًا. رجاءً، لا تعترض بكلام صادق – مزيف. أنت معجب بنفسك. هل أنت معجب بنفسك؟ اسمعني، إني مشارفة على نهايتي. هل يمكنك أن تصمت؟ إذ يجب عليك السكوت عن كل ما ستطلع عليه الآن. وقبل أي شيء آخر لا يجوز لسيدك الناظر، أخي، أن يعرف

أي شيء، ثبّت هذا في رأسك جيدًا. أما أنا فإني هادئة تمامًا، وأنت كذلك أيضًا، إني أرى ذلك، وستحافظ على وعدك وستحفظ لسانك، ستقدر على ذلك، أنا أعرف هذا. ثمة ما يتأكلني باستمرار، أنا أغرق في شيء ما، وأعرف ما هو. كم هو محزن هذا الحال يا صديقي الفتيّ العزيز، محزن جدًا. إني أتوقع منك القوة، أليس كذلك، ياكوب؟ لكنني أثق لتوي بأنك قوي. أنت صاحب قلب. كراوس ما كان ليستطيع الاستماع إلي حتى النهاية. وأنا أجد من الجميل أنك لم تبك. كم كان هذا سيمسني على نحو مقزز، لو أن عينيك الآن ستدمعان. ما زال أمامنا وقت لهذا. وأنت تصغي بشكل جميل. أنت تصغي إلى قصتي التعيسة مثل شيء صغير، لطيف وعادي، مثل شيء يستجدي الانتباه وحسب، لا شيء آخر، هكذا تصغي أنت. أنت قادر على أن تكون حسن السلوك بشكل فائق، إذا بذلت جهدًا كافيًا. وأنت طبعًا متكبر، نحن نعرف هذا، أليس كذلك؟ اصمت، ولا صوت الآن. نعم ياكوب، الموت (يا لها من كلمة) يقف ورائي مباشرة. انظر، مثلما أنفث الآن الهواء عليك، ينفث الموت عليّ من ورائي أنفاسه الباردة الفظيعة، وأنا أتدهور، أتدهور أمام أنفاسه. إنه يُضيّق عليَّ صدري. هل أحزنتك؟ قلْ. هل تجد الأمر محزنًا؟ قليلًا، أليس كذلك؟ ولكن عليك الآن أن تنسى هذا كله، هل سمعت؟ أن تنساه! سآتي إليك مرة ثانية، كما اليوم، وعندئذ سأخبرك عن حالي. انتبه، ستحاول الآن نسيان هذا الأمر. ولكن اقترب مني. دعني ألمس جبهتك. أنت شجاع». –جذبتني بلطف إليها ونفحت نفَسَها على جبهتي. أما اللمس الذي ذكرَته، فلم يقع منه أي شيء. ثم ابتعدت بهدوء وتركتني لأفكاري. أفكاري؟ لا طبعًا. فكرتُ ثانية بأني بحاجة إلى بعض النقود. هذه كانت فكرتي. هكذا أنا، فظ وطائش. ثم إن المسألة كالتالي: الارتجاجات القلبية تُسقِطُ في روحي شيئًا مثل الصقيع. وفيما كنت متحفزًا للحزن، انسحب مني إحساس الحزن بصورة كاملة. أنا لا أميل إلى الكذب. أن أكذب على نفسي بصورة عامة: ما المغزى من ذلك؟ يمكنني أن أكذب في مواضع أخرى، ولكن ليس هنا، على نفسي. لا، لست أدري، هنا أعيش، والآنسة بنيامنتا تقول هذه الأشياء الرهيبة، وأنا الذي أبجِّلها، لا تنزل دموعي؟ أنا حقير، هذا هو الأمر. ولكن قف عندك. أنا لا أريد أن أحط من شأن نفسي إلى هذا الدرك. أنا بطبعي مرتاب، ولهذا السبب-- –، إنها أكاذيب، محض

أكاذيب. هذا كله كنت أعرفه مسبقًا. أعرفه؟ هذه أيضًا كذبة أخرى. أنا لا يمكنني أن أقول الحقيقة لنفسي. لكني على كل حال أطيع الآنسة وسأسكت عن هذه القصة. أيحق لي أن أطيعها! ما دمت أطيعها فهي على قيد الحياة.

سأفترض أني جندي (وأنا بطبيعتي جندي ممتاز)، جندي مشاة عادي، وأخدم تحت رايات نابليون، فإني سأنطلق ذات يوم إلى روسيا. علاقاتي برفاقي الجنود جيدة، لأن البؤس والحرمان والأفعال الوحشية المشتركة المرتكبة والكثيرة تربطنا ببعضنا بعضا مثل أجزاء آلة حديدية. سنحدِّق أمامنا بغضب. نعم بغضب، فالغضب اللاواعي المتبلد يربطنا. وسوف نمشي، والبنادق معلقة دائمًا على أكتافنا. في المدن التي نعبرها ستبحلق فينا حشود بشرية كسولة مسترخية ومنصتة دونما تركيز إلى وقع أحذيتنا. ومن ثم لن يعود هناك مدن، أو نادرًا فحسب، وإنما مسافات أراض لا نهاية لها ستتمدد أمام أعيننا وأقدامنا نحو أفق رفيع. الأرض، حرفيًا، تنسل وتنسرب. ومن ثم سيأتي الثلج ويغمرنا، لكننا سنتابع مسيرنا دائمًا. سيقاننا ستصير الآن كل شيء. سيكون لدي وقت فراغ كاف للندم ولوم الذات بلا حدود. لكني دائمًا سأحافظ على تتالي خطواتي، بأن أرمي ساقيَّ الواحدة بعد الأخرى وأتابع المسير. وبالمناسبة، مسيرنا بات أشبه بجرجرة أقدام. بين الحين والآخر كانت تظهر في البعيد، البعيد جدًا ما يشبه سلسلة هضاب، رفيعة مثل حدِّ سكين جيب، نوع من غابة. وكنا نعرف حينئذ أن وراء هذه الغابة، التي سنصل إلى حافتها بعد ساعات طويلة، ستمتد أمامنا سهول لا نهائية أخرى. بين الآونة والأخرى كنا نسمع طلقات رصاص. وعند سماع هذه الأصوات المنفردة، كنا نتذكر ما سيأتي، المعركة التي لابد من خوضها هناك ذات يوم قادم. وسنتابع المسير. الضباط يخبُّون بجيادهم إلى جانبنا بوجوه حزينة، فيما يسوط المساعدون أحصنتهم متجاوزين الرتل كمن تطارده هواجس مروعة. سيفكر المرء بالقيصر، بالقائد، ولكن بغموض شديد، ورغم ذلك سيتخيله المرء، وهذا كان يوفر بعض السلوان. ويتابع المرء المسير. كثير من الانقطاعات الصغيرة، ولكن المخيفة، كانت تعرقل تقدم المسير لفترات قصيرة. لكن المرء لن يبالي بالأمر، بل سيتابع طريقه. ثم ستعاودني الذكريات، بعضها غائم وبعضها الآخر شديد الوضوح. وتأخذ في نهش قلبي مثل حيوانات مفترسة

حظيت بفريسة، وتثقلني الذكريات إلى ألفة الوطن، إلى روابي الكروم الذهبية الدائرية الشكل والمكللة بضباب خفيف. سأسمع أصوات أجراس البقر وتغريد الروح. وتنحني فوقي معانقةً مغازلة سماءٌ بلون الماء وتدرجاته الغنية. يكاد الألم يدفعني إلى الجنون، لكني أتابع المسير. رفاقي إلى يميني ويساري وورائي وأمامي يعنون الآن كل شيء. ساقي سوف تعمل مثل آلة قديمة لكنها مذعنة دائماً. القرى المحروقة ستصبح في العينين منظراً متكرراً يومياً لا يثير أي اهتمام، ولن يستغرب المرء الأعمال الوحشية التي يقترفها البشر. وذات مساء مع اشتداد البرد سيسقط رفيقي على الأرض، يمكن أن يكون اسمه تشارنر، وأنا أريد مساعدته على النهوض، لكن الضابط سيأمرني قائلاً: «اتركه في مكانه!». وسنتابع المسير. وذات يوم ظهراً، سوف نرى قيصرنا، سنرى وجهه. وهو سيبتسم، وسيفتننا. هذا الإنسان لن يخطر في باله قط، أن يوتِّر أعصاب جنوده بوجه مكفهر فيوهِن عزيمتهم. وواثقين بالنصر، وقد كسبنا مسبقًا معارك مستقبلية، تابعنا خوضنا في الثلج. ومن ثم، بعد مسير بلا نهاية ستقع المعركة أخيراً، ومن المحتمل أن أبقى حيًا، وأتابع المسير مجدداً. «أنت، الآن سننطلق إلى موسكو!» سيقول أحد جنودنا. ولأسباب أجهلها استغني عن الرد عليه. سأكون مجرد جزء صغير في آلة مشروع كبير، ولم أعد إنساناً. ما عدت أعرف شيئًا عن الوالدين ولا عن الأقارب، الأغاني، العذابات أو الآمال الشخصية، لا شيء عن معنى الوطن وسحره. سيكون الانضباط العسكري والصبر قد جعلا مني جسماً-كتلة بلا مضمون تقريبًا، كتيمة لا تُخترَق. وهكذا ستتم متابعة المسير إلى موسكو. لن ألعن الحياة، فقد باتت منذ وقت طويل تستحق اللعن. لن أحس بأي ألم، فالألم بكل تشنجاته وارتجافاته المباغتة قد انتهيت منذ زمن من الإحساس به وفرغت منه. هذا تقريبًا، في اعتقادي هو معنى أن تكون جنديًا تحت راية نابليون.

«يا لك من يميني في نظري، أنت!» قال لي كراوس، وفي الحقيقة من دون أي مبرر، «أنت تنتمي إليهم، هؤلاء الذين على الرغم من انعدام قيمتهم، يريدون اعتبار أنفسهم فوق التعاليم الصالحة. أنا مطلع كفاية، اسكت، يكفي. تظن أنك قد اكتشفت فيَّ مربيًا مريراً ومدعيًا. دعني لشأني. بماذا تشعر أنت وأمثالك

المغرورون وما إلى هنالك، تجاه ما يريد قوله في واقع الأمر، كل مَن هو جاد ومُبالٍ؟ لابد وأنك اعتمادًا على طيشك النَطاط الرقاص، وأنت بلا شك تظن نفسك محقًا، تبني لنفسك ممالك خيالية، أليس كذلك؟ أنت، أيها الرقاص، لقد كشفتك على حقيقتك. أنت تضحك دائمًا مما هو صحيح ولائق، هذا ما تستطيعه، أنت تجيد ذلك بإتقان، نعم، نعم، أنتم في هذا معلمون، أنت وخلانك. ولكن احذروا، احذروا. فلأجلكم لم تُبْطَل العواصف بعد، لا البرق والرعد حتمًا ولا ضربات القدَر. بسبب فتنتكم، أنتم معشر الفنانين، وهذا ما أنتم عليه، فإن الإنسان العامل، الحي بصورة عامة، لا يواجه مصاعب أقل وفجأة بالتأكيد. احفظ أنت غيبًا، ما يتراءى لك أنه درس، بدل أن تريني أنك قادر على السخرية مني. يا لك من سيد صغير، يريد أن يُبيِّن لي أنه قادر على التباهي متى شاء. دعني أقول لك إني ببساطة أحتقر مثل هذه التمثيليات البائسة. افعل شيئًا! لا يكفي المرء أن يدمغ هذه الجملة على جبينك المتكبر اثنتي عشرة مرة. أتعرف، ياكوب، يا سيد الوجود، دعني لشأني، واذهب لغزواتك. أنا مقتنع بأن هناك من سيركع عند قدميك، ولن تحتاج إلا لانتقاء من تشاء. فالجميع يجاملكم، والكل يراعيكم، يا صُنّاع المكانس. ما الأمر؟ أما زالت يداك في جيبيك؟ إني أفهم الحال طبعًا. فمن كان الحمام المشوي يطير إلى فمه، لماذا يُفترَض به فوق ذلك أن يبذل جهدًا، كي يبدو مثل شخص قد يجرؤ فعلٌ، عملٌ، شغلٌ يتطلب طاقة اليدين، على الاقتراب منه؟ رجاءً، تثاءب قليلًا أيضًا، ليتحسن المظهر. أما هكذا فتبدو متماسكًا جدًا، منضبطًا جدًا، متواضعًا جدًا. أم تريد أن تُصدِر إليّ بعض التعليمات؟ هيا افعلها، فأنا متشوق جدًا. أخ، اغرب عن وجهي. فبوجودك السخيف يُحتمل أن يفلت جنوني كليًا، يا -- -- ها أنا ذا على وشك أن أشتُم. أنت تستجر المرء إلى تعبيرات آثمة، وجودك يحرض على الغضب. فإما أن تجعل نفسك لامرئيًا أو أن تنهمك بشغل ما. ثم إنك تفقد كل ما يتعلق بالأدب، أمام الناظر، نعم، أنت. لقد رأيتك بنفسي. ولكن ما غرض الكلام مع فزاعة مضحكة؟ اعترف، بأنك ستكون لطيفًا جدًا، لو أنك لم تكن مهرجًا أحمق. إذا اعترفت لي بهذا فسوف أعانقك». – «أخ يا كراوس، يا أحب الناس»، قلتُ له «أنت تتهكم وتسخر؟ أيستطيع كراوس ذلك؟ هل هذا ممكن؟» – ضحكت

ضحكة صافية وعالية ومشيت إلى غرفتي متمهلًا. كل شيء هنا في معهد بنيامنتا سيصير قريبًا لا أكثر من مشي متمهل بلا هدف. يبدو كل شيء هنا وكأن «الأيام معدودة». لكن الإنسان يخطئ. وقد تخطئ الآنسة بنيامنتا أيضًا. وربما السيد الناظر. وقد نكون جميعنا مخطئين.

أنا الآن غني مثل كرويْسُس ملك ليديا، ولكن كم يساوي هذا ماليًا تقريبًا -- -- اسكتْ، لا تتكلم عن المال. إني أعيش حياة مزدوجة عجيبة، حياة منظمة وأخرى غير منظمة، حياة مراقبة وأخرى لا يمكن مراقبتها، حياة بسيطة وأخرى بالغة التعقيد. ماذا يريد السيد بنيامنتا أن يقول، عندما يعترف، بأنه لم يسبق له أن أحب إنسانًا؟ ما معنى أن يقول لي هذا، أنا تلميذه وعبده؟ طبعًا، التلاميذ هم عبيد، فتيان، تم انتزاعهم عن الأغصان والفروع، وتُرِكوا لريح العاصفة غير الرحيمة، حاملين معهم بعض الأوراق المصفرة. هل السيد بنيامنتا ريح عاصفة؟ ممكن جدًا، فقد سنحت لي الفرصة عدة مرات للإحساس بهبوب وغضب وانفجار هذه الريح العاصفة. ثم إنه قادر على كل شيء، وأنا تلميذ في غاية الضآلة. اسكتْ، لا تتكلم عن الجبروت. دائمًا يخطئ المرء، عندما ينطق بكلمات رنانة. فالسيد بنيامنتا قابل للزعزعة والضعف للغاية، إلى درجة ربما تستدعي الضحك شماتة. أعتقد أن كل شيء، كل شيء ضعيف، وأن على كل شيء أن يرتجف كالديدان. حسنًا، وهذه الإشراقة، هذا اليقين يجعلني مثل كرويسُس، أي مثل كراوس. كراوس لا يحب شيئًا ولا يكره شيئًا، ومن هنا فإنه مثل كرويسُس، ثمة شيء في شخصيته قاهر لا يقبل الجدل. إنه مثل صخرة، والحياة، الموجة العاصفة تتكسر متشظية على فضائله. إن طبيعته، جوهره، مُثقل بالفضائل. لا يطيق المرء أن يحبه، ناهيك عن أن يكرهه. الإنسان يميل جدًا إلى الجميل والجذاب، ولهذا فإن الجميل والحلو عرضة بدرجة عالية لخطر الافتراس والاستغلال. لكن أشواق الحياة المفترسة المتعطشة لا تجرؤ على الاقتراب من كراوس. فكم هو ضائع في الحقيقة، أو بالأحرى كم يقف هناك صلبًا لا يُمس. مثل نصف إله. ولكنْ لا أحد يفهم هذا، وأنا -- -- أحيانًا أتكلم وأفكر بالفعل فوق مستوى عقلي. لهذا كان يُفترض بي أن أصير كاهنًا، زعيم طائفة أو مذهب ديني. حسنًا، مازال بإمكاني ذلك. مازال بإمكاني أن أصير ما

أشاء. ولكن بنيامنتا؟ -- أنا متأكد من أنه في المرة القادمة سيحكي لي سيرة حياته. سيشعر بإلحاح للبوح بحقائق وبحكايا. هذا محتمل جدًا. والغريب: ينتابني شعور أحيانًا بأنه لا يجوز لي أبدًا أن أنفصل عن هذا الرجل، هذا العملاق، وكأننا كلانا مصهورين في واحد. لكن الإنسان يخطئ دائماً. أن أكون متماسكًا، إلى حد ما، هذا ما أريده. ليس كثيراً، لا، أبدًا، فأن يكون المرء شديد التماسك، يعني أنه شديد الوقاحة. لأي غرض يتوقع المرء شيئًا مهمًا من الحياة؟ هل هذا ضروري؟ أنا ضئيل جدًا. وأتمسك بهذا بثبات، بملء حريتي، بكوني ضئيلاً، ضئيلاً ومخجلاً. والآنسة بنيامنتا؟ هل ستموت حقًا؟ إني لا أجرؤ على التفكير في الأمر، ولا يجوز لي ذلك أيضًا. ثمة إحساس سامٍ يمنعني عن ذلك. لا، أنا لست مثل كرويسُس. وبما يتعلق بالحياة المزدوجة، فكل امرئ في حقيقة الأمر يعيش مثل هذه الحياة. فما الداعي للتباهي؟ أخ، كل هذه الأفكار، كل هذا التوق الغريب، هذا البحث، ومد اليدين طلبًا لمعنى ما. سواء كان في الحلم أو في النوم. سأترك الأمر ببساطة ليأتي. يُحتمل أن يأتي.

إني أكتب بسرعة كبيرة. جسمي كله يرتجف، ثمة وميض أمام عيني يتراقص صعودًا وهبوطًا بجنون. لقد حدث أمر مروع، يبدو أنه حدث، لست متمالكًا نفسي تمامًا، ولست متأكدًا مما حدث. السيد بنيامنتا دهمته نوبة وأراد أن – يخنقني. هل هذا حقيقي؟ ويلي، قدرتي على التفكير تتناقص كلها، وما عدت قادرًا على أن أقول، ما إن كان كل ما حدث حقيقيًا. لكني ألاحظ من الاضطراب المهيمن عليّ أنه حقيقي. دخل الناظر في حالة غضب لا توصف. كان يشبه شمشون، ذلك الرجل من تاريخ فلسطين القديم، الذي هز أعمدة بناء سامق مليء بالناس، إلى أن انهار القصر الاحتفالي الفاجر، إلى أن تداعى رمز النصر الحجري، إلى أن تهاوى الشر. صحيح أن هنا، أي قبل أقل من ساعة، لم يوجد أي شر أو سفالة للقضاء عليها، ولم توجد أعمدة ولا دعائم، ولكن الأمر بدا كذلك، تمامًا، ودخلتُ حالةً من خوف الأرانب الرهيب، لم أمر بمثلها سابقًا. نعم كنت أرنبًا، وفي واقع الأمر، كان لدي مبرر للهروب مثل أرنب، وإلا لكان حالي بالويل. لقد تملصت، ولا يسعني أن أصفها بشكل آخر، من بين قبضتيه المطبقتين عليّ، بليونة وسرعة عجيبة، وأعتقد أني قد عضضت أصبع السيد

بنيامنتا الضخم، العملاق جوليات. ربما كانت العضة السريعة الشديدة هي ما أنقذ حياتي، فثمة احتمال صغير، أن الألم الذي سببه الجرح قد ذكَّره فجأة بضرورة العودة إلى جادة العقل والإنسانية، بحيث أن الفضل في بقائي على قيد الحياة تعلق على الأرجح بأذى فظٍ نابع من سلوك تلميذ. لا شك في أن خطر تعرضي للخنق كان وشيكًا، ولكن ما الذي أدى إلى حدوث هذا كله، وكيف أمكن أن يحدث كل ذلك؟ لقد هجم عليّ مثل مجنون. رمى نفسه عليّ بجسمه الهائل، كما في لحظة تحول الغضب الشديد إلى جنون؛ اندفع نحوي مثل موجة بحرٍ ليمزقني على كواسر الموج الصلدة. ما بالي وخرافات الماء الآن! هذا هراء، لا شك، لكني ما زلت مأخوذًا، ومضطربًا ومصعوقًا. «ما هذا الذي تفعله يا سيدي الناظر المحترم؟ ما بك؟» صرخت وركضت كالممسوس إلى باب المكتب وإلى الدهليز. وهناك تنصتُ ثانية. حالما نفدت بجلدي سالماً إلى الدهليز توقفت ووضعت أذني وأنا أرتجف بكل أطرافي، على ثقب مفتاح الباب. سمعت ضحكًا خافتًا. فاندفعت إلى هنا، إلى مكاني في غرفة الدروس، وها أنا ذا، لا أعرف ما إن كنت قد حلمت بذلك، أم أني قد عشته حقًا. لا، لا، إنه، إنه واقعة حقيقية. ولكن ليت كراوس يأتي. مازلت أشعر بشيء من الخوف. كم سيكون لطيفًا لو جاء كراوس الطيب ليلومني ويعنفني قليلًا كعادته. إني أرغب في أن أُشتَمَ وأُعنَّفَ وأعاقَب قليلًا وأدان، هذا سيريحني إلى حدٍ لا يوصف. هل أنا طفل؟

أنا في واقع الأمر لم أكن طفلًا أبدًا، ولهذا السبب، أعتقد واثقًا، سيبقى دائمًا شيء طفولي ما عالقًا بي. لقد نمَوتُ هكذا وحسب، ازدادت سنوات عمري، لكن الجوهر بقي. المقالب الطائشة مازالت تستهويني جدًا، كما قبل سنوات، ولكن هنا يكمن صلب الموضوع، إذ لم يسبق لي أبدًا أن دبرت لأحد مقلبًا طائشًا. ذات مرة عندما كنت صغيراً تسببت بفجٍّ رأس أخي. كان هذا حدثًا، وليس مقلبًا طائشًا. الحماقات والولْدنات كانت كثيرة لا شك، لكن الفكرة كانت تثيرني دائمًا أكثر من الفعل نفسه. وقد بدأتُ مبكراً باستخلاص إحساس عميق ما من كل شيء، حتى من المقالب الطائشة. أنا لا أطوِّر نفسي. هذا مجرد زعمٍ ليس إلا. ولربما لن أمد فروعًا وأنشر أغصانًا. ذات يوم سينبثق من طبيعتي وبدايتي أريج ما، سأصير زهرة، وسأفوح بعبقي قليلًا، لمتعتي الخاصة، ومن ثم سأميل هذا

الرأس، الذي ينعته كراوس بالحمق والتكبر والعناد. ذراعاي وساقاي سيرتخون على نحو غريب، والعقل، الكبرياء، الشخصية، كل شيء، كل شيء سينكسر ويذبل، وسأكون ميتًا، ليس موتًا حقيقيًا، وإنما بمعنى ما، وعندها سأبقى على هذه الحالة نحو ستين سنة ثم سأموت. سأصير عجوزًا. لكني لن أخاف من نفسي ولن أبث الخوف في نفسي. إني لا أحترم أنايَ مطلقًا، أنا أراها فحسب، وهي لا تحرك فيَّ أي شيء، بل تتركني باردًا تمامًا. آه لو أحصل على دفء! ما أروع الأمر! سأتمكن من بلوغ الدفء كلما شئت، إذ لن يعيقني أي شيء شخصي، ذاتي عن بلوغ الدفء، عن الاشتعال وعن المشاركة. ما أسعدني، بعدم قدرتي على أن ألمح في نفسي أي شيء يستحق الاحترام والرؤية. أن أكون صغيراً وأبقى كذلك. وإن حدث ورفعتني، حملتني يدٌ، ظرف، موجة إلى فوق، حيث تهيمن السلطة والنفوذ، فسأحطم الظروف التي آثرتني، وسأرمي نفسي بنفسي إلى تحت، إلى قاع العتمة الكتيمة. أنا لا يمكنني التنفس إلا في الحضيض.

إني في حالة انسجام مع التعليمات، التي لا تزال سارية المفعول هنا، عندما تأمرنا، بأن على عيني التلميذ والمتدرب على الحياة، أن تلمعا من الحيوية والإرادة الطيبة. نعم، على العينين أن تشرقا بثبات الروح. أنا أحتقر الدموع، ومع ذلك فقد بكيت. ولكن داخليًا أكثر على كل حال، وقد يكون هذا تحديدًا هو الأكثر إثارة للخوف.

قالت لي الآنسة بنيامنتا: «ياكوب، إني أموت لأني لم أعثر على حب. فالقلب الذي لم يرغب رجلٌ وقور في امتلاكه، في مسِّه، يموت الآن. إني أودعك منذ الآن، ياكوب. أنتم الفتيان، كراوس، أنت والآخرون سوف تغنّون أغنية عند السرير، الذي سأرقد عليه. وسوف تنوحون، بصوت خافت ستنوحون. وكل واحد منكم، أعرف هذا، سيضع على الشرشف وردة طازجة، قد تكون حتى رطبة بندى الطبيعة. دعني أيها القلب الإنساني الفتي أضع فيك ثقتي الأخوية الباسمة. نعم، ياكوب، البوح لك أمر طبيعي جدًا، لاعتقاد المرء بأنك أنت الذي تبدو كما أنت الآن، يجب أن تمتلك أذنا تصغي إلى الجميع وإلى كل شيء، حتى لما لا يُقال وما لا يُسمع، أن تمتلك صدرًا ينصت وعينًا ترى وروحًا تشعر وفهمًا

متعاطفًا ورحيمًا. إن عدم تفهم أولئك الذين كان يُفترض بهم أن يروني ويفهموني، وجنونَ الحذرين والأذكياء، وقسوةَ قلوب المترددين وعدمَ الرغبة في الحب، هذا كله دمَّرني. اعتقَد أحدهم ذات يوم بأنه يحبني، ويتمنى امتلاكي، لكنه تردد، وتركني أنتظر، وأنا أيضاً ترددت، لكنني فتاة، كان يجب أن أتردد، كان يحق لي ويُفترض بي ذلك. آه، كم خدعتني الخيانة، كم عذبني خواءٌ وقسوة القلب الذي آمنت به، لاعتقادي بامتلائه بمشاعر حقيقية مندفعة. فما يستطيع أن يفكر ويميز، ليس شعوراً. إني أتحدث إليك عن الرجل، الذي جعلتْني أحلامٌ حلوة أنيقة أؤمن بأنه لا غبار عليه. لا أستطيع أن أقول لك كل شيء. ويُفضَّل أن أصمت. آه من القاتل الذي يهلكني، ياكوب، وكل الموئسات التي تكسرني! – ولكن يكفي. قل لي، هل تحبني، كما يحب الإخوة الفتيان أخواتهم؟ لا بأس. أليس كذلك، ياكوب، لا بأس تمامًا بكل شيء، كما هو عليه؟ لا، أليس كذلك، نحن كلانا لا نريد أن نحقد ولا أن نرتاب؟ ولن نكرر أبدًا أن نشتهي امتلاك شيء، فهكذا أفضل؟ أم لا؟ بل نعم. هذا جميل. تعال ودعني أقبِّلك، مرة بريئة واحدة. كن رقيقًا. أعرف أنك لا تحب البكاء، ولكن دعنا الآن نبكي قليلًا معًا. واسكت كليًا الآن، اهدأ تمامًا.» ولم تضِف شيئًا إلى ذلك. بدا الأمر وكأنها كانت تريد أن تقول الكثير بعدْ، لكنها لم تجد الكلمات المناسبة للتعبير عن أحاسيسها. في الخارج في الفناء كانت تثلج بندف كبيرة مبلولة. ذكرني هذا بفناء القصر، بالمخادع الداخلية، حيث أثلجت أيضًا بندف كبيرة مبلولة. المخادع الداخلية! وأنا مَن فكر طوال الوقت بأن الآنسة بنيامنتا هي سيدة هذه المخادع الداخلية. كنت أفكر بها دائمًا كأميرة رقيقة. والآن؟ إذا بالآنسة بنيامنتا إنسانٌ-أنثى تعاني، وليست أميرة. وسترقد ذات يوم هناك في السرير. سيكون فمها متصلبًا، وحول جبينها فاقد الحياة سيتجعد شعرها بخداع ساحر. وما الهدف من تخيل هذا؟ الآن سأذهب إلى الناظر، فقد أرسل يبلغني بأن عليَّ الذهاب إليه. من طرفٍ هناك نواح فتاة وجثمان، ومن الطرف الآخر أخوها، الذي، على ما يبدو، لم يعش بعد إطلاقًا. نعم، يبدو لي السيد بنيامنتا مثل نمر جائع وسجين. وإلى أي حد؟ وأنا، سأسلم نفسي لفكي النمر المتثائب؟ هيا ادخل! فقد تبرد جرأته في مواجهة تلميذ أعزل. سأضع نفسي بمتناول يديه. إني أخافه، وفي الوقت نفسه

ثمة شيء في داخلي يسخر منه. يضاف إلى ذلك أنه مازال مدينًا لي برواية قصة حياته. لقد وعدني بذلك، وأنا سأعرف كيف أذكره بالأمر. نعم، هكذا يبدو لي: أنه لم يعش بعد إطلاقًا. فهل يريد الآن يا ترى أن يستمتع بي؟ وهل يعتبر ممارسة الجريمة استمتاعًا؟ سيكون هذا غبيًا، غبيًا جدًا، وخطيراً. لكنه يجبرني! يجب عليّ دخول مكتب هذا الإنسان. ثمة سلطة روحية لا أفهمها، تضطرني إلى أن أكرر دائمًا استجوابه، استكشافه. يُحتمَل أن يفترسني الناظر، وبكلمات أخرى أن يلحق بي أذى وعاراً. وعندئذ على كل حال سأكون قد انتهيت في سبيل قضية نبيلة. فلأدخل إلى المكتب الآن. والمعلمة المسكينة!

لابد لي من القول بأن الناظر قد ربّت على كتفي بيده وضحك لي بفمه العريض ولكن حسن التشكيل، فظهرت أسنانه، وكان هذا مشوبًا بشيء من الاحتقار، إنما بألفة (نعم، بألفة نتيجة الاحتقار). «يا حضرة الناظر»، قلتُ بغضب لا يصدق، «لابد لي من رجائك أن تعاملني بودٍ لا ينطوي على إساءة. فأنا مازلت تلميذك. وما عدا ذلك، أنا أستغني بكل إصرار عن رأفتك. فأظهِر احترامك وطيبتك تجاه صعلوك. اسمي ياكوب فون غونتن، صحيح أن صاحب الاسم مازال فتى، لكنه إنسان واع بكرامته. أنا لا أُعذَرُ، أرى ذلك، لكني لا أُهان، وسأحول دون ذلك». وبهذه الكلمات المتطاولة إلى حد الإضحاك فعلًا، بهذه الكلمات غير المناسبة إلى حد ما في عصرنا الحاضر، دفعت عني يد السيد الناظر. أدى هذا إلى ازدياد سرور السيد بنيامنتا وقال: «لابد لي ببساطة من أن أمسك نفسي، عن أن أضحك لك، ياكوب، ويجب أن أمسك نفسي عن تبويسك، أيها الفتى الرائع». -- -- فصرخت: «تبويسي أنا؟ هل جننت يا حضرة الناظر؟ لا أرجو هذا». -- -- ودُهِشت فعلًا من عدم تحرجي من طريقة قولي، وتراجعت خطوة إلى الخلف، كمن يتفادى ضربة. أما السيد بنيامنتا الذي جسد في تلك اللحظة الطيبة والمراعاة، فقال بشفتين ترتعشان من الرضا: «يا فتى، يا صبي، ما ألذَّك. كم يستهويني أن أعيش وإياك سوية في صحارٍ أو على جبالٍ جليدية في بحار الشمال. تعال إليّ. يا للشيطان، هيا لا تخشى شيئًا، لا تخف مني. لن أؤذيك. كيف يمكنني أن أؤذيك، وهل بوسعي أن أؤذيك؟ أن أحسَ بأنك ثمين ونادر، أترى، هذا ما يجب عليّ، هذا ما أفعله، ولكن لا داعي لأن تخاف من هذا. فيما عدا

ذلك، ياكوب، والآن أتحدث بكل جدية، فاسمع: هل تريد أن تبقى عندي، كليًا عندي؟ أنت لا تفهم الأمر على نحو صحيح، دعني إذن أوضحه لك بهدوء. المعهد هنا سينتهي، أتفهم هذا؟» --- وبحماقة انطلقتْ مني الكلمات: «آه، يا حضرة الناظر، هذا ما توجست!» – ضحك مجددًا وقال: «أترى، أنت توجست إذن، أن معهد بنيامنتا الموجود اليوم، لن يوجد غدًا. نعم، هكذا يمكن للمرء أن يقول. أنت كنت آخر تلميذ فيه. لن أقبل أي متدربين آخرين. انظر إليّ. إني أشعر بفرح عظيم، أتفهمني، لأن الفرصة قد سنحت لي للتعرف إليك، إلى الفتى ياكوب، الإنسان المعتدل الصفات، قبل أن أغلق المعهد إلى الأبد. والآن أسألك أيها المحتال، الذي قيدني إليه بسلاسل بهيجة فريدة في نوعها، أتريد أن تذهب معي، هلا بقينا معًا، لنبدأ شيئًا ما سوية، لنحاول شيئًا ما، لنجرؤ، لنبتكر، هلا قمنا سوية، أنت الصغير وأنا الكبير، بمحاولة معًا للنجاح في الحياة؟ أرجو أن تجيب فورًا». – فأجبت: «أنا أرى أن الوقت لم يئن بعد للإجابة على هذا السؤال، يا حضرة الناظر. لكن ما تقوله يثير اهتمامي، وسوف أفكر بالأمر حتى الغد. ومع ذلك، أتوقع أني سأجيب بنعم». – لم يستطع السيد بنيامنتا أن يمسك نفسه عن قول: «أنت ساحر». – وبعد صمت قصير قال: «انظر، معك يمكن للمرء أن ينجح بالقيام بمشروع ما خطير، طموح، مغامر واستكشافي. ويمكن للمشروع الذي سنقوم به أن يكون أيضًا شيئًا راقيًا ومحتشمًا. وطبيعتك تصلح للنوعين، الرقيق والمقدام. بالاتحاد معك يجرؤ المرء إما على شيء جسور أو لبق جدًا». – فقلت: «يا حضرة الناظر، لا تجاملني، فهذا كريه ومثير للريبة. ثم قف قليلًا! أين حكاية ماضيك، التي وعدتني أن تحكيها لي، حسبما تتذكر لا شك؟» – في هذه اللحظة دفع أحدهم الباب. كان كراوس. اندفع داخلًا إلى الغرفة، لاهثًا شاحب الوجه وغير قادر على النطق بالخبر، الذي كان على رأس لسانه، كما كان جليًا. أشار لنا بيده فحسب أن علينا الذهاب معه. فتوجهنا ثلاثتنا إلى غرفة الدروس المعتمة. ما رأيناه هنا جعلنا نجمد.

على الأرض رقدت الآنسة فاقدة الروح. أمسك الناظر يدها، وتركها كمن لدغته أفعى وارتد إلى الوراء مرتجفًا مرتاعًا. ثم عاود الاقتراب من الميتة، دقق النظر فيها، تراجع ثانية ليقترب من جديد. ركع كراوس عند قدميها. حملتُ رأس

المعلمة بكلتا يديَّ، كيلا يلامسَ الأرضَ القاسية. كانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، ليس على اتساعهما، بل كما لو كانتا ترمشان، فأغمضهما السيد بنيامنتا، وقد ركع أيضًا على الأرض. لم ينطق أي منا حتى كلمة، لكننا لم نكن «غارقين في أفكار عميقة». أنا على الأقل لم أكن قادراً على التركيز على موضوع معين. لكني كنت هادئًا. بل بدوت في نظر نفسي صالحًا وجميلًا، مهما بدا هذا الكلام مختالًا. سمعت من مكان ما أنغامًا تنسال برقة. وأخذت تتثنى أمام عينيّ خطوط أشعة. «احملاها»، قال السيد الناظر بصوت خافت، «هيا، احملاها إلى غرفة المعيشة. بلطف، بلطف، امسكاها بلطف. بحذر يا كراوس. يا إلهي، ليس بهذه الخشونة. ياكوب انتبه، أسمعتني؟ لا تتركاها تصطدم بشيء. سأساعدكما. بكل هدوء، إلى الأمام. هكذا. ليمد أحدكما يده ويفتح الباب. تمام، تمام، ولكن بحذر». – برأيي، كان هذا كلامًا فائضًا عن الحاجة. حملنا الآنسة ليزا بنيامنتا إلى السرير، الذي سحب السيد الناظر الغطاء عنه بسرعة، وها هي راقدة هناك الآن، حيث أعلمتني مسبقًا. ثم دخل الرفاق ورأوها. وقفنا جميعنا حول السرير صامتين، ثم أومأ لنا الناظر بإشارة مفهومة، فبدأنا نحن التلاميذ كجوقة بالغناء بأصوات منخفضة. كان هذا هو النواح، الذي أرادت الآنسة أن تسمعه، عندما ترقد على سرير الموت. وتخيلتُ الآن أنها تصغي إلى الغناء الخافت. وقد خيل إلينا جميعًا، في ظني، وكأننا في غرفة الدروس، نغني بأمر من المعلمة، التي كنا نطيع أوامرها بسرعة. عندما انتهت الأغنية خرج كراوس من نصف الدائرة التي شكلناها حول السرير وقال ما يلي، بشيء من البطء، ولكن بإلحاح أكبر: «نامي، اسكني بلطف، أيتها الآنسة المحترمة. (لقد خاطب الميتة بصيغة رفع الكلفة. أعجبني هذا). لقد تحررتِ من المصاعب، وتخلصتِ من قيود المخاوف، تحررت من هموم ومصائر الحياة الدنيا. غنينا لك حول السرير يا مبجلة، كما أمرتِنا. فهل هُجِرْنا الآن، نحن تلاميذك؟ هكذا يبدو، هذا هو الواقع. ولكن أنت، التي رحلتِ باكرًا، لن تغيبي أبدًا عن ذاكرتنا، أبدًا. ستبقين حية في قلوبنا. نحن فتيانك الذين علمتهم وقدتهم، سوف نتشتت في الحياة الخفّاقة المجهدة ونحن نبحث عن كسب ومأوى، بحيث لن نلتقي أو يرى بعضنا بعضا أبدًا. لكننا جميعنا سوف نفكر فيك، يا مربيتنا، لأن الأفكار التي رسختها فينا، والمواعظ والمعارف التي

ثبتِّها فينا، ستُذكِّرنا من نفسها دائماً بك يا صانعة الخير. عندما نجلس لتناول الطعام، ستقول لنا الشوكة حسبما رغبتِ، كيف علينا أن نستخدمها وكيف نسلك بتهذيب، ونحن جالسين إلى المائدة، والوعي بأننا نفعل ذلك، سيدفعنا للعودة إلى التفكير بك. في ذواتنا أنت تقودين وتأمرين وتحيين وتربين وتطلبين وتُطاعين دائماً. أحد تلاميذ المعهد، لا على التعيين، من الذين لاقوا في الحياة حظًا أوفر من الآخرين، قد لا يريد التعرف على أحد زملائه الفقراء الأقل حظًا، عندما يصادفه ذات يوم. لا شك. لكنه يفكر من ثم لاإراديًا بمعهد بنيامنتا وبسيدته، فيشعر بالخجل لنكرانه مبادئك بهذه السرعة والعجرفة ونسيانه إياها. وسيمد يده لمصافحة الرفيق، الأخ، الإنسان، بغض النظر عن جميع التحفظات. ماذا علمتِنا أيتها الراحلة؟ قلت لنا دائمًا، أنه يُفترضُ بنا أن نبقى متواضعين ومتعاونين. آه، لن ننسى هذا أبدًا، مثلما أننا لن نستطيع تجاوز مَن نطقت بذلك ولن ننساها. نامي بسلام أيتها المبجلة. واحلمي! ولتواكبك التصورات الجميلة هامسة حولك. الوفاء السعيد بوجوده إلى جوارك، ينحني تحية لك، والتعلق بك الممتن لك، وعدم القدرة على النسيان الرقيق الذي يضمخ الذكريات، ينثرون الزهور والأغصان والورود حبًا بك على جبينك ويديك. نحن تلاميذك نريد أن نغني لك ترتيلة أخرى، وبعدها سنكون موقنين من أننا قد صلينا عند مرقدك، الذي سيبقى في ذاكرتنا مرقد البهجة والتفاني الفرحِ. فهكذا علمتِنا أن نصلي. كنت تقولين: «ليكن الغناء صلاة». وسوف تسمعيننا، وسوف نتخيل أنك تبتسمين. ستتقطع قلوبنا لرؤيتك راقدة هنا، أنت التي كانت حركاتك بالنسبة إلينا نحن العطاشى مثل ماء النبع العذب المنعش. نعم، إنه وضع مؤلم. لكننا نسيطر على أنفسنا، ولا شك في أنك أنت أيضًا كنت سترغبين في ذلك. في أن نكون متماسكين. وها نحن نطيعك ونغني». -تراجع كراوس عن المرقد وانضم إلينا، وغنينا ترتيلة أخرى تهادت نغماتها هنا وهناك بنفس الصوت الخافت كما الأولى. ثم اقتربنا من السرير، الواحد وراء الآخر، وطبع كل منا قبلة على يد الآنسة الميتة. كما قال كل واحد منا نحن المتدربين بضع كلمات. قال هانس: «سوف أخبر شيلينسكي، وهاينريش لابد أن يعرف أيضًا». - وقال شاخت: «وداعًا، لطالما كنتِ طيبة». وقال بيتر: «سأتبع وصاياك». ثم عدنا إلى غرفة

الدروس، تاركين الأخ عند الأخت، الناظر عند الناظرة، الحي عند الميتة، الوحيد عند الوحيدة، الملتاع عند المنتهية، السيد بنيامنتا عند الآنسة بنيامنتا لوحدهما.

كنت مضطرًا إلى وداع كراوس، فقد ذهب. ثمة نورٌ، شمسٌ قد انطفأت. يخيل إليّ وكأن في العالم ومحيطه منذ الآن لن يكون سوى مساء. فالشمس قبل أن تختفي، ترمي وراءها حزم أشعة حمراء على الحاضر الآخذ في الإظلام، وكذلك فعل كراوس. فقد عنفني ثانية بسرعة، وإذا بـ كراوس الأصلي بكامله يشع لآخر مرة. «وداعًا ياكوب، حَسِّن نفسك، غيِّرها»، قال لي، مادًا يده لمصافحتي وهو منزعج تقريبًا لاضطراره أن يفعل ذلك، «سأغادر الآن، لأدخل الدنيا، الخدمة. آمل أنك أنت أيضًا ستضطر إلى ذلك قريبًا. وهذا حتمًا لن يضرك. أتمنى لك عدة ضربات على طيش عقلك. يُفترضُ بالمرء أن يشدك بقوة من أذنيك المتمردتين. ولا ينقص إلا أن تضحك عند الوداع أيضًا. فهذا يليق بك على كل حال. ومن يدري، يُحتمَل أن تكون الأوضاع في هذه الدنيا على درجة من السخف بحيث ترفعك عاليًا. عند ذلك سيكون بمقدورك أن تستمر بكل ارتياح ووقاحة في السفاهة والعناد والتكبر وفي الكسل المتبسم والسخرية وكل أصناف العادات السيئة، كما أنت الآن. وعندها سيكون بإمكانك أن تتباهى حتى تنفجر بكل ما لم تشأ التخلي عنه من عادات سيئة هنا في معهد بنيامنتا. لكنني آمل أن الهموم والمتاعب ستأخذك إلى مدرستها القاسية، التي تسحق كل الرذائل. انظر، إن كراوس يتكلم بقسوة. ومع ذلك فإن نواياي تجاهك، يا نديم الظُرْف، قد تكون أفضل مِمَن سيتمنى لك وصول الحظ إلى حضنك الدافئ وفمك المرتخي. اشتغلْ أكثر وتمَنَّ أقل، وثمة شيء آخر: أرجوك أن تنساني كليًا، لأني سأغضب وحسب إنْ فكرتُ بأنك تخبئ لي إحدى أفكارك العتيقة البالية المرفوضة والمتراقصة، من قبيل: (إنْ لم آتِ اليوم، قد أجيء غدًا). لا، يا صبي، وتذكَّر أن كراوس بِغنى عن مزاحك الفون غونتنوي». –«يا عزيزي القاسي القلب»، صحت مشحونًا بخشية توجساتِ وأحاسيس الوداع، وأردت أن أعانقه. لكنه حال دون ذلك بأبسط طريقة في الدنيا، بأن ابتعد بسرعة وإلى الأبد. «اليوم ما زال معهد بنيامنتا قائمًا، ولكن ليس غدًا»، قلت بصوت عالٍ مخاطبًا نفسي. ثم دخلت إلى السيد الناظر، يخامرني إحساس بأن العالم قد أصيب بشق مشتعل متوهج متباعد بين

طرف مكاني مفترَض والطرف الآخر. بذهاب كراوس ذهب نصف الحياة. «ومنذ الآن ستبدأ حياة أخرى!» همهمت لنفسي. كان الأمر في غاية البساطة: كنت مغمومًا ومضطربًا قليلًا. فما الحاجة إلى الكلمات الكبيرة؟ انحنيت أمام الناظر بطريقة رسمية أكثر من أي وقت سبق، وبدا لي من المناسب أن أقول: «نهارك طيب، حضرة الناظر». – «هل جننت يا فتى؟» صاح، وتقدم إلي ليعانقني، لكنني حلت دون ذلك، بأن ضربت ذراعه الممدود نحوي، وقلت بجدٍ عميق: «كراوس رحل». صمتنا واكتفينا بتبادل النظرات طويلًا.

وأخيراً قال السيد بنيامنتا بصوت رجولي هادئ: «اليوم دبرتُ لجميع الآخرين، لرفاقك، أماكن عمل. لن يبقى هنا سوانا نحن الثلاثة، أنت وأنا وهي، الراقدة على السرير في الداخل. الميتة (ولماذا عدم الكلام عن الموتى؟ أنت حي، أليس كذلك؟)، سيأتون غدًا ليأخذوها. يا لها من فكرة كريهة، لكنها ضرورية. اليوم سنبقى ثلاثتنا معًا. وسنبقى سهرانين طوال الليل. نحن الاثنان سوف نتبادل الحديث عند مرقدها. وعندما تعود بي أفكاري الآن إلى ذاك اليوم، عندما جئتني راجيًا، طالبًا، وسائلًا القبول في المدرسة، تدهمني رغبة لا مثيل لها في الحياة وفي الضحك. لقد تجاوزت الأربعين من عمري. هل أنا متقدم في السن؟ كنتُ متقدمًا في السن، أما الآن، وأنت تقف هكذا أمامي، ياكوب، فإن الأربعين تعني لي اخضرار وقوة براعم الشباب. فمعك أنت بروح فتوتك، دبَّ فيَّ الشباب، وبالأحرى دبت فيَّ الحياة من جديد. كنتُ هنا في هذا المكتب قد يئست، وجفت الحياة في عروقي، كنت مدفونًا هنا. كنت أكره الدنيا، أكرهها، أكرهها. كنت أكره كل شيء على نحو لا يوصف، حياتي، حركتي، طبيعة جوهري. فدخلتَ أنت، نضرًا، سفيهًا، غير مؤدب، وقحًا ويانعًا، تفوح بأحاسيس طازجة، ومن الطبيعي أني أغلظت لك في القول، لكني عرفتُ عندئذ، مثلما أراك الآن، أنك فتى رائع، وقد، حسبما خيّل إلي، نزلتَ إليَّ من السماء، أرسِلتَ وأهديتَ إليّ من قِبَل إلهٍ عالمٍ بكل شيء. نعم، كنتُ بحاجة ملحة إليك، وكنت دائمًا أضحك خفية، عندما كنت تدخل إلى مكتبي بين الحين والآخر، كي تثقل عليّ، لا، بل لتفتنني، بحماقاتك وغلاظاتك المثيرة، التي كانت تبدو لي مثل لوحات فنية ناجحة. اهدأ بنيامنتا اهدأ. – قل لي، ألم تلاحظ أبدًا أننا صديقان؟ لا داعي لأن

تجيب. وعندما كنت أحافظ على وقاري أمامك، كم كنت أرغب في تمزيقه ألفَ مزقه. وكم كنتَ اليوم رسميًا حتى الجنون في انحنائك أمامي! ولكن اسمع، ما رأيك حقيقة بنوبة الغضب التي اعترتني مؤخرًا؟ هل أردتُ أن أؤذيك؟ هل أردتُ أن أوجه إلى نفسي ضربة مميتة؟ لربما تعرف أنت ذلك، ياكوب؟ أتعرف؟ أوضح لي إذن فورًا رجاءً. فورًا، هل فهمت! ما بالي؟ ماذا؟ ماذا تقول؟» –«لست أدري. اعتبرتك مجنونًا يا حضرة الناظر»، أجبت. وسرت في جسمي قشعريرة من فائض الرقة وحب الحياة المتدفق من عيني الرجل. صمتنا برهة. وفجأة خطرت في بالي فكرة، أن أذكّر السيد بنيامنتا بقصة حياته. كانت فكرة جيدة جدًا. فهي حسب الأحوال يمكن أن تلهيه، أن تمنعه من نوبات قاتلة جديدة. كنت في تلك اللحظة مقتنعًا تقريبًا أني موجود بين مخالب نصف مجنون، ولهذا قلت بسرعة، وقطرات العرق تسيل على جبيني: «صحيح، قصة حياتك، يا حضرة الناظر؟ ماذا عنها؟ أتعرف أني أبغض التنويهات؟ لقد نوّهت بغموض إلى أنك حاكم معزول. حسنًا، هلا عبّرت عن الأمر بوضوح. أنا متشوق جدًا». – فرك وراء أذنه مترددًا جدًا. ثم انتابه فجأة غضب فعلي، غير عادي، وأمرني بصوت عسكري: «انصرف. دعني وحدي!» –حسناً، لم أتردد حتى يأمرني ثانية، بل غادرت فورًا. أهو خجِلٌ من أمر ما، أو مغتم لأمر ما، هذا الملك بنيامنتا، هذا الأسد في القفص؟ غير أني شعرت بسرور كبير لوجودي في الخارج ثانية، في الدهليز، حيث يمكنني أن أقف وأنتصت. ساد نوع من صمت القبور. ذهبت إلى حجرتي، أشعلت بقية شمعة وغصت في صورة أمي، التي كنت أحتفظ بها بعناية دائماً. بعد فترة سمعت نقرًا على بابي. كان الناظر، وكان يرتدي السواد. «تعال»، أمرني بحزم صارم. ذهبنا إلى غرفة المعيشة، كي نسهر على الراحلة. أشار السيد بنيامنتا بحركة خفيفة بيده إلى حيث عليّ الجلوس. جلسنا. ومن حسن الحظ أني لم أشعر بأي تعب جسدي. كنت مرتاحًا جدًا لذلك. بقي وجه الميتة جميلًا، بل بدا حتى أكثر رقة، بالإضافة إلى شيء آخر: بدا من لحظة إلى أخرى أن مزيدًا من الجمال والعاطفة والرشاقة تنهمر عليه. شيء مثل صفحٍ باسمٍ عن أي خطيئة، كان يتهادى في جو غرفة المعيشة مصدِرًا لحنًا خافتًا، كالتغريد. وفي الوقت نفسه كان جو الغرفة يوحي بجدية خفيفة ومشرقة، وغيابٍ تام لكل ما هو

موحش. غمرني إحساس بالجمال، إذ يكفي سهري هنا وحده ليمنحني الشعور بالراحة الذي يكمن في القيام بالواجب بصمت.

«فيما بعد، ياكوب»، بدأ الناظر الكلام أثناء جلوسنا، «فيما بعد سأحكي لك كل شيء. فنحن على كل حال سنبقى معًا. وأنا على قناعة راسخة، كالصخر حتى، بأنك ستوافق. غدًا عندما سأسألك عن قرارك، لن تقول لا، أعرف هذا. بالنسبة إلى اليوم عليَّ أن أقول لك، إنني لست في الحقيقة ملكًا معزولًا عن عرشه، ما قصدته هو–، قلت لك ذلك على سبيل التشبيه. لكنني مررت بأوقات، كان خلالها بنيامنتا هذا، الذي يجلس إلى جانبك، يشعر بنفسه كسيدٍ غازٍ وكملك، حين كانت الحياة أمامي لأستوعبها، وحين كانت جميع حواسي تؤمن بالمستقبل والعظمة، وحيث كانت خطواتي تحملني بكل ليونة، كما على مروج من السجاد والامتيازات، حيث كنت أملك ما تراه عيناي، وأستمتع بما لم أفكر فيه إلا على نحو عابر، حيث كان كل شيء جاهزًا لتتويجي بالرضا والمنجزات ولإهدائي النجاحات، حين كنت ملكًا دون أن أعرف ذلك، وعظيمًا دون الحاجة إلى دفع فاتورة ذلك بوعي. بهذا المعنى، يا ياكوب، كنت في القمة، أي أني كنت ببساطة شابًا وواعدًا جدًا، وبهذا المعنى جرى عزلي عن عرشي وتجريدي من منصبي. فسقطت. وشككت بنفسي وبكل شيء. عندما يكون المرء يائسًا وحزينًا، عزيزي ياكوب، يكون ضئيلًا بصورة تعيسة بائسة، ويزداد باستمرار تساقط الحقارات على ما يشبه الحشرة السريعة النهمة، التي تفترسنا ببطء شديد، والتي تعرف كيف تخنقنا ببطء شديد، وتجردنا من إنسانيتنا. موضوع الملك كان إذن مجرد عبارة فارغة. أرجوك أن تعذرني أيها المستمع الصغير، إذا كنتُ قد جعلتك تعتقد بوجود صولجان ومعطف أرجواني. رغم ظني بأنك في واقع الأمر كنت تعرف، ما كان المقصود من هذه الممالك التي يتلجلج بها المرء ويتلعثم. الآن أبدو لك إلى حدٍ ما أكثر أنْسًا، أليس كذلك؟ الآن، بما أني لم أعد ملكًا؟ فأنت تقرِ من نفسك لا شك، بأن أمثال هؤلاء الحكام، إذا اضطروا إلى التدريس وما شابه ذلك وإلى افتتاح معاهد، فإنهم سيكونون رعاة مرعبين. لا، لا، أنا كنت فخورًا بالمستقبل وحسب، وفرِحًا: وهذا كان أملاكي ومصادري الملَكية. ثم كنت لمدة طويلة، لسنوات طويلة مثبَط الهمة ومذلولًا. وها أنا ذا مجددًا، أعني أني أستعيد

نفسي مجدداً، ويخامرني شعور وكأني قد ورثت مليوناً، لا، لا أعني ورثت مليوناً، لا، بل يخيل إليّ كأني -- -- قد رُفِعت لأصير حاكماً وتم تتويجي. غير أنها تعاودني، الأوقات المظلمة العصيبة، حيث يبدو كل شيء أسود أمام عيني، افْهمني، ومكروهاً بالدرجة نفسها أمام الروح المحترقة المتفحمة، وفي مثل تلك الأوقات أحس بالاضطرار لأن أمزق وأقتل. وأنت يا روحي، بعد اطلاعك الآن على الأمر، هل سترغب في البقاء معي؟ هل سيمكنك أن تحسم أمرك، ربما ببساطة انطلاقاً من ميل إنساني تجاهي، أو من إحساس واعدٍ آخر، لتتحدى الخطر الذي يهددك بتواجدك معي أنا الوحش؟ أيمكنك التحدي بقلب شجاع؟ هل أنت معاند من هذا القبيل؟ ولن تستاء من هذا كله؟ استياء؟ كلا، أي سخف. أنا على كل حال أعرف يا ياكوب أننا سنعيش معاً. الأمر محسوم. فما الداعي لسؤالك بعد؟ انظر، أنا أعرف بالتأكيد تلميذي السابق. أنا لم أعد راغباً في أن أربيّ وأعلِّم، بل أريد أن أعيش، وأن أعيش فاعلاً حاملاً مبدعاً شيئاً ما. وكم ستكون المعاناة رائعة مع قلبٍ مثل هذا الرفيق. إني أمتلك ما أردتُ أن أمتلكه، ولهذا أشعر بقدرتي على كل شيء، على تحمل ومعاناة كل شيء بفرح. يكفي، لا فكرة ولا كلمة أخرى. اصمت أرجوك. ستخبرني غداً برأيك، بعد ان يحملوا بعيداً هذه الحياة الراقدة هناك على السرير، وبعد أن أخلع عني مراسم الاحتفالية الخارجية وأتحول إلى الحزن الداخلي. قد تقول نعم، وقد تقول لا. وليكن في علمك، أنك الآن حر تماماً. بإمكانك أن تقول وتفعل ما تشاء». – فقلتُ بصوت خافت جداً، راجفٍ من الرغبة في أن أرعِب قليلاً هذا الإنسان، الذي وضع كل ثقته فيَّ: «وماذا عن الخبز، يا حضرة الناظر؟ توفِر وظائفَ للآخرين، ولي تحديداً لا؟ إني أجد الأمر مستغرباً. هذا ليس عدلاً. وأنا أصر على ذلك. من واجبك أن تجد لي مكان عمل مرتب. أنا أصر على الحصول على شغل ومكان عمل». – لقد ارتعد. ارتعب. وكم ضحكت في داخلي. لا شك في أن الشيطنات هي ألطف ما في الحياة. قال السيد بنيامنتا بحزن: «معك حق. من الواجب بناء على شهادة تخرجك توفير مكان عمل لك. بالتأكيد، أنت محق تماماً. إلا أني فكرت، إلا – أني فكرت -- –، أنك ستشكل استثناء». – فصحت كما لو كنت في حالة سخط مشتعل: «استثناء؟ أنا لا أشكل استثناءات. مطلقاً. هذا لا يليق بابن كبير

المستشارين. حشمتي، أصلي، وكل ما أحس به يمنعني من المطالبة بأكثر مما حصل عليه رفاقي في المعهد». -ومنذئذ لم أنطق بكلمة أخرى. وكنت راضيًا عن ترك السيد بنيامنتا في حالة قلق سَرّتني. وأمضينا بقية الليلة صامتين.

ولكن في أثناء جلوسي ساهراً على الميتة، غلبني النعاس. ليس لوقت طويل، انسحبتُ من الواقع لنصف ساعة أو ربما لأكثر قليلًا. حلمت (والحلم بدأ من الذروة زخمًا، حسبما أتذكر، يرميني بحزمٍ من أشعة)، بأني موجود على منبسط جبلي. كان مغطى كله ببساط حشيشيّ مخملي داكن الخضرة وموشى بتشكيل من الزهور المنتشرة مثل القبلات. وسرعان ما تجلت القبل أمامي مثل نجوم، لتعود بسرعة إلى زهور. كان المنظر طبيعيًا وغير طبيعي في الوقت نفسه، صورة وتجسيدًا معًا. وثمة صبية رائعة الجمال مستلقية على البساط. أردتُ أن أقنع نفسي بأنها المعلمة، لكني قلت لنفسي بسرعة: «لا، لا يمكن أن تكونها. لم يعد لدينا معلمة». ثم تبيّن أنها شخص أخر، ورأيت نفسي وأنا أواسي نفسي، لدرجة أني سمعت المواساة تقول بوضوح: «آه، دعك من التأويل». - كانت الفتاة ذات جسم متماوج باهر العري. وعلى إحدى ساقيها الجميلتين التف شريط كان يرفرف مع النسائم، وكأنه يداعب الجسم كله. وخيل إليّ كأن الحلم اللذيذ اللامع كمرآة كان يهفُّ بأجمعه. كم كنت سعيدًا. وبصورة عابرة تمامًا فكرت بـ «هذا الإنسان». وهذا الذي فكرت به بهذه الطريقة كان السيد الناظر طبعًا. رأيته فجأة، كان معتليًا فرسه، مرتديًا دروعًا فاخرة سوداء تومض في الشمس. وقد تدلى السيف الطويل على جنبه، والفرس يصهل متشوقًا للنزال. «يا للعجب! الناظر على فرسه»، فكرتُ، وصحت بأعلى صوتي، حتى ترددت الأصداء في الشعاب والوديان: «لقد وصلتُ إلى قرار». - غير أنه لم يسمعني. صرخت حتى آلمتني حنجرتي: «أنت، يا حضرة الناظر، أتسمع». لا، لقد أدار لي ظهره. نظرته كانت متجهة إلى البعيد، لولوج الحياة وللخروج منها. ولم يلتفت إلي حتى برأسه. ومن أجل خاطري على ما بدا، تابع الحلم التقدم قطعة فقطعة، ولكأنه كان عربة، لنجد أنفسنا، أنا و«هذا الإنسان»، السيد بنيامنتا طبعًا، في وسط الصحراء. تجولنا فيها وتعاطينا التجارة مع سكانها، وكنا على نحو فريد نضُجُّ حيوية بنوع عظيم من الرضا العميق. بدا الأمر وكأننا كلانا قد نأينا إلى الأبد عما

يسمى حضارة أوروبية، أو على الأقل لمدة طويلة. «آها»، فكرتُ لاإراديًا، وبشيء من السخف، كما بدا لي: «هكذا هو الأمر إذن!» – لكني لم أعرف ما هو هذا الأمر الذي فكرت فيه، ولم أستطع رفع الغموض عنه. تابعنا تجوالنا. ظهرت لنا حفنة غير منظمة من عساكر معادين، لكننا شتتناهم، ولكن دون أن أرى حقيقة كيف جرى ذلك. بمرور أيام التجوال كنا نطوي تضاريس الأرض بسرعة البرق. أحسست بتجربة المرور الخاطف لعقود طويلة من السنين لم يكن تَحمُّلها سهلًا. كم كانت تجربة فريدة. والأسابيع المفردة كانت تتبدى مثل حصوات صغيرة لمَّاعة. كان الأمر مثيراً للسخرية ورائعًا في الوقت نفسه. «أن تنأى بنفسك عن الحضارة، ياكوب، ما أروع ذلك، أتعرف»، كان الناظر يقول بين الحين والآخر، وقد بدا كأنه عربي. كنا نركب على جملين. والعادات التي اطلعنا عليها فتنتنا. كان ثمة شيء لطيف على نحو غير مفهوم في حركات البلدان، وناعم أيضًا. نعم، كنت أحس وكأن البلدان تسير، لا، بل تطير بالأحرى. كان البحر يمتد بجلال كعالم من الأفكار أزرقَ واسعًا ومبلولًا. كنت أحيانًا أسمع تغريد طيور، وأحيانًا حيوانات تجأر وتزأر وتخور وتزمجر، وتارة أخرى حفيف الأشجار فوقي. «إذن ها أنت قد رافقتني أخيراً. كنت أعرف ذلك»، قال السيد بنيامنتا، الذي نصبه الهنود أميراً. ما أروع هذا! الوضع متوتر إلى حد رهيب: فواقع الأمر هو أننا قد أشعلنا ثورة في الهند. والظاهر هو أن انقلابنا قد نجح. كانت الحياة ذات طعم لذيذ أحسست به بكل أعضائي. كانت الحياة تزهو أمام نظراتنا المديدة مثل شجرة ذات فروع وأغصان. وكم كانت وقفتنا ثابتة. وخضنا عبر الأخطار والإدراكات كما في ماء جليدي، لكنه مريح جدًا لحرارة حماستنا كماء نهر. أنا كنت دائمًا التابع الخادم، والناظر كان الفارس. «لا بأس»، فكرت دفعة واحدة. وحالما فكرت بذلك، استيقظتُ وتلفت حولي في غرفة المعيشة. كان السيد بنيامنتا قد نام أيضًا. أيقظته بقولي له: «كيف لك أن تنام يا حضرة الناظر. ولكن اسمح لي أن أخبرك بأني قد قررتُ الذهاب معك، حيثما شئتَ». – تصافحنا، وقد عنى ذلك الكثير.

أنا أحزم متاعي. بل كلانا، الناظر وأنا مشغولان بالحزم، بحزمٍ فعلي مشترك للانطلاق، فنرتب ونختار، ونسحب ونزيح وندفع الأثاث. سوف نسافر. حسنًا.

هذا الإنسان يناسبني، ولم أعد أسأل نفسي عن السبب. أشعر بأن الحياة تتطلب اندفاعات، وليس تأملات. اليوم سأقول لأخي وداعًا. لن أترك ورائي شيئًا هنا. لا شيء يربطني، ولا شيء يُلزِمني بأن أقول: «لو أني ... إذا...». لا، لم يعد هناك لو و إذا. الآنسة بنيامنتا راقدة تحت التراب. التلاميذ، رفاقي توزعوا في وظائف مختلفة. وإذا تحطمتُ وهلكت، ما الذي سينكسر ويفسد عندئذ؟ صفْر. أنا الإنسان الفرد لست سوى صفر. ولكن لأضع الريشة من يدي الآن. لأبعد عني حياة الأفكار. سأذهب مع السيد بنيامنتا إلى الصحراء. أريد أن أختبر بنفسي ما إن كان بالإمكان للإنسان في البريّة أن يعيش، يتنفس، يوجد، أن يريد الخير ويفعله، وأن ينام ليلًا ويحلم. يكفي. لم أعد أريد التفكير بأي شيء الآن. ولا بالرب؟ لا! الرب سيكون معي. فما الداعي للتفكير به؟ الرب يرافق شاردي الفكر. وداعًا إذن يا معهد بنيامنتا.

انتهت

المؤلف

روبِرْت ڤالْزَر Robert Walser أديب سويسري-ألماني، ولد في ١٥/٤/ ١٨٧٨ في مدينة بيل Biel ثاني أكبر مدينة ثنائية اللغة (ألماني/فرنسي) لأسرة كثيرة الأولاد، ومات في ٢٥/١٢/١٩٥٦ في مِصَح هِريساو Herisau في أثناء مشوار مشي في الثلج. بعد المرحلة المدرسية تلقى ڤالزر تدريباً مصرفياً وعمل مساعداً في عدة بنوك وشركات تأمين في زوريخ. نشر قصائده الأولى ١٨٩٨ ففتحت له الطريق إلى الأجواء الأدبية. وبعد أن نشر كتابه الأول «مقالات فريتس كوخَر» ١٩٠٥ لحق أخاه كارل إلى برلين، الذي نجح هناك كفنان تشكيلي، وسينوغراف مسرحي. وفي تتابع سريع نشر روبرت ثلاث روايات: «الإخوة تانَّر» ١٩٠٧، «المساعد» ١٩٠٨، «ياكوب فون غونتن» ١٩٠٩. كما ركز على كتابة الخواطر والقطع النثرية القصيرة ذات الموضوعات المختلفة، وبرع في ذلك بصورة لافتة أثارت اهتمام كتاب كبار في ذلك الحين مثل موزيل وتوخولسكي وبنيامين وكافكا وهِسَه، وتنقل خلال هذه المرحلة بين أعمال متنوعة ليعيل نفسه.

في عام ١٩١٣ اضطر الكاتب، بسبب انسداد الأفق أمامه، للعودة إلى سويسرا، فأقام لدى أخته الكبرى ليزا في مقر عملها معلمةً في مؤسسة لرعاية المرضى نفسياً في محافظة برن، ثم انتقل إلى بيت أبيه في بيل، ثم قرر استئجار عِلِيّةٍ رخيصة وبائسة في فندق الصليب الأزرق وبدأ بمشاوير المشي الطويلة. وخلال الحرب العالمية الأولى استُدْعي للاحتياط، وانقطع تواصله مع ألمانيا ووسطها الأدبي والصحفي، كما تتالت وفيات أبيه وأخويه فشعر بعزلة كبيرة، فانتقل ١٩٢١ للعمل في الأرشيف العام للدولة في برن. خلال السنوات التالية طوَّر ڤالزر أسلوبه لغوياً وموضوعاتياً، فلجأ إلى التكثيف و التورية في تناوله كتّاباً وفنانين وإلى توليفٍ مدهش بين ثيمات من «الأدب الرفيع» وأخرى من «الأدب الوضيع». على الرغم من قلة فرص النشر كان الكاتب غزير الإنتاج جداً.

في عام ١٩٢٩ وبعد عدة أزمات نفسية، أصيب ڤالزر بانهيار عصبي، فأدخل بناء على إلحاح أخته ليزا إلى المصح النفسي في ڤالداو قرب برن، فتحسن وضعه

بعد عدة أسابيع وعاود الإنتاج مستخدماً أسلوب المنمنمات الدقيقة بقلم الرصاص، ولم يُبيِّض منها بالحبر للنشر بخط طبيعي سوى القليل. وفي عام ١٩٣٣ تم نقله رغماً عنه إلى مصح هِريساو قرب بيل، فتوقف عن الكتابة نهائياً، ويُرجّح أن استلام النازيين السلطة في ألمانيا كان السبب الرئيسي. بقي ڤالزر نزيل هذا المصح حتى وفاته منسياً من العالم، عدا الكاتب كارل سيليغ، الذي صار لاحقاً وصيَّه.

في نهاية سبعينات القرن الماضي بدأت عملية إعادة اكتشاف روبرت ڤالزر بإعادة طباعة ما سبق أن نُشر من أعماله، وتوِّج ذلك بإصدار أعماله كاملة في عشرين مجلداً بتحقيق علمي شمل فك شيفرة المنمنمات الرصاصية، كما صدرت دراسات نقدية كثيرة تناولت أعماله بالتحليل وتأثيرها في سياق تطور الأدب الناطق بالألمانية، فاعتُبر الحلقة المفقودة بين هاينريش فون كلايست وفرانتس كافكا، وأحد آباء الحداثة الألمانية، ولا يخفى تأثيره طبعاً على كتاب مثل مارتين ڤالزر وپيتر پيكسل وپيتر هاندكه وإلفريدة يلينك وڤينفريد غيورغ سيبالد.